
روايات مصرية للجيب
زهور
99
ملاك الحب
Looloo
www.dvd4arab.com

هذه السلسلة ..

عندما تتحوّل حياة الفرد منا إلى صحراء جرداء ..
وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة ..
يتوق قلب كل منا إلى الحبّ .. الحبّ الذى يروى هذه المشاعر .
فيعيد إلى أوراقها الخضرة .. ويبدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ، ورياض غناء .

إنه الحب .. الحب بمعناه الرحب : حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأب .. حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ..

هذه الكلمة السحرية التى تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة فى صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التى ينشدها كل منا فى لحظات اليأس .. وفى لحظات الغضب.. وفى لحظات الكراهية.. وفى لحظات الجفاف.. فتشيع عبيرها الفوّاح في ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذي طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

المقدمة

« .. غرسٌ واحد هو الذى يستطيع أن يملأ حياتنا بالسعادة وينقيها من كل شقاء :

إنه الحب .. »

المؤلف

الفصل الأول

كان المنظر فى جملته يبدو وكأنه لقطة ساحرة من الزمن الجميل !!

الفيلا المربعة ذات الطابقين بواجهتها البيضاء الشاهية ، ونوافذها البنية النظيفة ، ومدخلها المفروش ببساط من العشب الأخضر المقصوص بعناية ، وقد اصطفت على جوانبه أشجار الفل ، والياسمين ، والبنفسج .. مختالة بفتنتها وروعتها ، بينما راحت شمس الأصيل تنسحب إلى عرشها المجهول خلف خط الأفق فى هدوء وجلال ، مخلفة وراءها غلالات من النور الفضى تودعها سيمفونية أسراب العصافير المتزاحمة على أغصان الأشجار المحيطة بالفيلا وقد أطلقت تغريدها فى عزف صوفى ، يقطر عذوبة تجعل قلب من يسمعه يجيش تسبيحًا بإبداع الخالق ..

وكانت لفيلا الدكتور (رأفت) واجهتان إحداهما تطل على شارع « صلاح سالم » برونقه واتساعه وحديقته البسيطة المنمقة خاصة فى هذا الجزء القريب من مطار القاهرة الدولى ، بينما الواجهة الأخرى ، والتى بها المدخل تطل على شارع جانبى صغير ، ولكنه نظيف وشديد الهدوء تصطف على جانبيه مجموعة من الفيلات الكلاسيكية التى نجت من مذابح مقاولى الأبراج الأسمنتية الكئيبة والمولات التجارية الهمجية ..

ولم يكن هناك ثمة شيء شاذ فى جملة هذا المنظر الراقى سوى تلك الكومة السوداء المستقرة بجوار كشك الحراسة الخاص بالفيلا المهجورة لفيلا الدكتور (رأفت) فى الشارع الجانبى ..

ولم تكن هذه الكومة سوى رجل لايُعرف إن كان مخبولاً أم مجذوبًا أم متسولاً ..

وكل ما كان واضحًا فيه هو بشاعة هيئته برأسه التى تبدو ككومة مقززة من القش الأسود المغبّر ، ووجهه المتسخ ، وشاربه الكث الموصول بلحيته الضخمة الشعثة ، وجلبابه الأسود الكالح المفتوح الصدر ، وبطانيته البالية التى يتدثر بها فى جلسته التى لم تتغير منذ استقراره فى مكانه هذا قبل شهرين أو أكثر إلا حينما يذهب لقضاء حاجته فى حمّام (محمد) بواب فيلا الدكتور (رأفت) ، والذى يعطف عليه ولاينساه مطلقًا ، فى إفطار ، أو غداء ، أو عشاء .. حيث يضع أمامه طبق الطعام والخبز وكوب الماء ، ويربت عليه بحنان كى يأكل ، وهو الذى منحه هذه البطانيةَ التى يتدثر بها ، وقطعة سجاد يفترشها ، ووسادة صغيرة يجلس عليها نهارًا ويتوسدها ليلاً .. وهو الذى أطلق عليه اسم « سيد » بعد أن فشل فى معرفة اسمه ..

وفى ركنها المفضل بحديقة الفيلا كانت الدكتورة (ليلى) تجلس إلى طاولتها المصنوعة من البامبو الفاخر ، وقد انهمكت فى كتابة قصتها الثالثة من مجموعتها القصصية الأولى التى تنوى نشرها فى كتاب ، وقد استقرت أمامها «فازة» ورد فرنسية

رقيقة تطل منها باقة من زهور الفل والبنفسج اللذين تعشقهما الدكتورة ... وكاسيت صغير ينساب منه صوت العندليب الأسمر وهو يشدو برائعته « رسالة من تحت الماء » ..

والدكتورة (ليلى) هى الابنة الوحيدة للدكتور (رأفت عبد العظيم) أستاذ جراحة المخ والأعصاب ، وقد احتفلت بعيد ميلادها السادس والعشرين منذ أيام قليلة .. فتاة رقيقة تبدو ملاكًا بوجهها الجميل البشوش ، وشخصيتها المتزنة الهادئة ، وسلوكها الراقى مع الجميع .. وهى طبيبة أمراض نفسية بمستشفى والدها الاستثمارى ، ولكنها قبل أن تكون طبيبة هى شاعرة ، وأديبة بالفطرة .. بدأت فى كتابة الشعر والقصة منذ دراستها الثانوية ، ونجحت بتشجيع من والديها وخالها المخرج السينمائى الكبير (يوسف البكرى) فى نشر عدد من قصائدها وقصصها فى الصحف والمجلات ..

ـ وكانت الدكتورة الأديبة قد بلغت ختام قصتها حين سمعت الصوت الذى تحبه وتنتظره يوميًا فى هذا التوقيت :

ـ مساء الخير يا دكتورة .

ونهضت تستقبله بابتسامتها الحلوة :

ـ مساء النور يا بابا .

ـ كان الدكتور (رأفت) وسيمًا ، باهر الأناقة كنجوم السينما ، وذو عينين ساحرتين تموج فيها شقاوة لذيذة رغم سنوات عمره التى تجاوزت الخمسين .. وقف يتطلع إلى الورق على الطاولة قائلا :

ـ (شامم) رائحة حلوة !

أجابته بمكر :

ـ بالتأكيد رائحة الورد يا دكتور .

أشار بغليونه الثمين إلى الورق :

ـ رائحة اللؤلؤ المنشور هنا .. القصة يا موناليزا .

دنت منه الفتاة ، ووقفت تتأمله مفتونة بوسامته ، وعينيه الساحرتين ، ثم همست له مبهورة :

ـ لها حق ماما تغير عليك .

وأخذها الأب الوسيم فى حضنه كعادته .. وفى هذه اللحظة وصلت (منى) صديقة الدكتورة (ليلى) ..

ورحب بها الدكتور (رأفت) بحرارة ، ثم استأذنهما فى الانصراف ، ومضى بينما جلست الفتاتان ....

و(منى) هى صديقة حميمة للدكتورة (ليلى) رغم أنهما لم تتعارفا إلا منذ سنة تقريبًا فى المعرض الدولى للكتاب .. وهى محامية تقارب الدكتورة فى السن ، من أسرة فقيرة تقيم فى حى المطرية الشعبى ، ولكنها مجتهدة وتحب مهنتها بشدة ..

وقد استراحت (ليلى) لها لتدينها ، وخلقها الطيب ، وسرعان ما وجدت نفسها تندمج معها بحميمية حتى صارتا وكأنهما صديقتا عمر ..

بادرت (منى) صديقتها متسائلة :

ـ صديقتى ما أخبارها ؟

ـ اخبارى الطبية أم الأدبية ؟؟

ـ الكل ..

ـ طبيًا لا جديد .. أدبيًا انتهيت من قصتى الثالثة توًا .

ـ برافو ..

ثم أردفت منى :

ـ لا تتخيلين يا « لولا » كم سأكون فخورة وسعيدة عندما أرى كتابك معروضًا فى المكتبات بين مؤلفات الأساتذة الذين نسمع بهم ولا نراهم .

وداعبتها (ليلى) :

ـ أفهم من ذلك أن حضرتك ستكتفين بالفرجة عليه فقط ؟؟

وهتفت (منى) ضاحكة :

ـ لا طبعًا .. سأشتريه وأقرؤه من الأربع جهات ..

ـ أربع جهات ؟! إنه كتاب يا بنتى وليس قطعة أرض .

* * *

الفصل الثانى

فى الثامنة صباحًا ، موعدها الذى لا يتقدم ولا يتأخر ، كانت الدكتورة (ليلى) تغادر الفيلا بحيوية ورشاقة الغزلان ، وقد سبقها (محمد) البوّاب إلى سيارتها « الأوبل » الصفراء الواقفة بالجانب الآخر من الشارع .. وعند البوابة لمحت أمها (كوثر هانم) تقف فى شرفتها ، فأشارت لها ملوحة مبتسمة ، ثم مضت تعبر الشارع قاصدة سيارتها ، وإذا بها تتسمر فى مكانها على صراخ موتور سيارة .. وإذا بسيارة « جيب شيروكى » سوداء مندفعة نحوها من ناحية الشارع « صلاح سالم » فى جنون جعل (كوثر هانم) فى شرفتها تطلق صرخة مروعة .. وتسقط مكانها فاقدة الوعى .. بينما صرخ البواب العجوز وقد أغمض عينيه فزعًا « يا اللـه » .. ولم يفتح عينيه إلا على دوىّ ارتطام السيارة بسور الفيلا .. وحينما فتحهما تجمدت نظراته على منظر الدكتورة (ليلى) وهى تنهض من فوق أرضية الرصيف شبه غائبة عن الوعى تحدق فى (سيد) الممدد على الأرض غارقًا فى دمائه .. والذى كان قد قفز عليها قبل أن يطولها « طائر الموت » ، وقذف بها إلى الرصيف فى حركة خاطفة لتطيح « السيارة المجنونة » به فى الهواء .. بينما الشارع يكتظ بسيارات ورجال البوليس ، فلم يكن قائد « الشيروكى » سوى مهرب مخدرات خطير يطارده البوليس ..

★ ★ ★

فى غرفة العمليات بمستشفى الدكتور (رأفت) تدافع فريق من أساتذة الطب والجراحة ، والممرضات لإسعاف « سيد » ، وقد أخذتهم جميعًا الدهشة من اهتمام وقلق الدكتور (رأفت) على هذا المخلوق البشع المنظر ..

ولكن سرعان ما تلاشت دهشتهم جميعًا حينما علموا بما فعله .. بل تدفق من قلوبهم جميعًا إحساس جارف بالإجلال واللهفة على نجاته ..

وما لبثت السعادة أن أشرقت فى قلوبهم وعلى رأسهم الدكتور (رأفت) ، حينما اكتشفوا أن إصاباته كلها سطحية .. فالسيارة لم تدهسه بل طوحته بعيدًا ، وجراحه لم تكن سوى نتيجة لارتطامه بالأرض ..

.. وأمام حجرة العمليات كانت الدكتورة (ليلى) ، و« كوثر هانم » يقفان وسط جيرانهم ، وأصدقائهم ، وأقاربهم ، ينهشهم جميعًا القلق على هذا « المخلوق العجيب » الذى افتدى الدكتورة بنفسه وأنقذها من هلاك محقق ..

وراحوا جميعًا يبتهلون إلى « اللّـه » أن يلطف به وينجّيه .. ثم ما لبثت الدكتورة (ليلى) والدتها وخالها (يوسف) أن راحوا ينهالون على (محمد) البوّاب بالأسئلة عن كينونة هذا الرجل .. أو أية معلومات عنه ..

ولكن المسئول لم يكن بأعلم من السائلين ، فعادوا جميعًا يتضرعون إلى « الله » أن يكون معه ..

وبعد أكثر من ساعة ونصف خرج الدكتور (رأفت) وسط كوكبة الأطباء من غرفة العمليات ، وقد أضيئت وجوههم بالسعادة .. واندفعت (ليلى) نحو أبيها تسأله فى لهفة محمومة :

ـ عامل إيه يا بابا ؟

ـ زى الحصان .

ـ ممكن أراه ؟

ـ ممكن ..

وإذا بالترولى يخرج حاملاً (سيد) على ظهره غائبًا عن الوعى ..

واندفعت (ليلى) وأمها تميلان عليه .. ولكن الدكتور (رأفت) بادرهما قائلاً :

ـ ما زال مخدرًا .. اتركوه يستريح ..

ومضى الممرضون بالترولى إلى حيث أمرهم (رأفت) بينما (ليلى) تشيعه بنظراتها مذهولة ، والجميع من حولها يتمنون له السلامة فى قلوبهم ..

★ ★ ★

الفصل الثالث

.. ست وثلاثون ساعة كاملة قضتها الدكتورة (ليلى) جالسة بجوار فراش (سيد) فى غرفته الفاخرة بالمستشفى ، ونظراتها لا تبرح وجهه .. بل لا تكاد ترى فيه سوى عينيه المطبقتين ، ولا تشعر بلهفتها الجامحة على انفراج هاتين العينين معلنًا عن حال صاحبها ..

.. وأخيرًا تململ (سيد) فى فراشه ، وفتح عينيه على سقف الحجرة دون أن يلفتهما يمينًا أو شمالاً .. وكأنه لا يعلم أن هناك شيئًا اسمه الالتفاف .. ودنت منه الفتاة بحذر ، وهى لا تدرى ماذا تقول أو تفعل .. يدها تريد أن تتحسسه لتطمئن عليه .. وشفتاها تريد أن تسأله .. ولكنها لا تدرى إذا كان سيعى لمساتها أو سؤالها .. وماذا سيكون رد فعله ؟ فربما كان مختلاً عقليًا .. وربما كان على وشك نوبة هياج عصبى نتيجة آلام جسده .. وهياجه كمجنون سيكون مفزعًا ..

وتجمدت مكانها غارقة فى حيرتها وخوفها .. ونسيت تمامًا أنها طبيبة نفسية ! إنها الآن مجرد فتاة مذعورة مدينة لهذا « المخلوق الغامض » بحياتها ..

.. ماذا تفعل ؟؟ أبيها ! فلتسرع بالاستنجاد به ..

وهمت بالاندفاع نحو الباب ، فإذا بالدكتور (رأفت) يدخل بصحبة مساعديه .. وفوجئ بحالة ابنته الحبيبة ، فسألها ملهوفًا عمّا بها .. فأشارت إلى (سيد) :

ـ فتح عينيه !

ـ وهل فتح عينيه يفعل بك هذا ؟!!

وربت عليها بحنان .. ثم دنا من (سيد) .. وكان طبيب الجراحة قد سبقه فى الكشف على جراحه .. وراح الدكتور (رأفت) يناديه بحنان .. بينما راحت (ليلى) تترقب جوابه فى لهفة .. ولكن لا مجيب .. فالتفتت الفتاة إلى أبيها متسائلة فى تردد :

ـ أهو معوق ذهنيًا يا بابا ؟

ـ وأجابها الدكتور (رأفت) باسمًا :

ـ مخه زى الفل .

وتدخل طبيب من الواقفين :

ـ لقد أجرينا له أشعة شاملة لكافة أجهزته بما فيها المخ والأعصاب .

وعادت الفتاة تتساءل :

ـ إذن هو ليس مجنونًا ؟!

وأجابها الدكتور (رأفت) :

ـ ليس مجنونًا .

وطغت دهشتها :

ـ إذن لماذا هو بهذه الحالة ؟!

ـ هذا السؤال يخصك يا دكتورة .. على ما أتذكر حضرتك طبيبة نفسية !

واستدار الطبيب الباسم منصرفًا فى هدوء مع صحبته تاركًا الطبيبة الصغيرة تحدق حائرة فى هذا « الأشعث اللغز » الساكن فى فراشه ..

* * *



الفصل الرابع

.. استدعت الدكتورة (ليلى) اثنين من الممرضين وناولتهم حقيبة صغيرة ، وهى تسِرُّ لهما ببضع كلمات أسرعا على إثرها بوضع (سيد) فى البانيو ، حيث قاما بغسله بعناية شديدة ، ورفق ، وألبساه البيجامة الحرير القرمزية التى كانت بالحقيبة الصغيرة ليضعاه بعد ذلك بين يدى « الكوافير » الذى أحضرته الدكتورة إلى المستشفى .. لتجد الطبيبة الشابة نفسها فى النهاية أمام شاب رائع الوسامة ، بهى الطلعة ، يهفو القلب لرجولة ملامحه ..

ووجدت الدكتورة نفسها تجلس بجواره على حافة الفراش .. تحتضنه بعينيها ، وترد شعره الأسود الناعم بأصابعها الجميلة إلى الخلف ، وهى تناجيه هامسة فى حيرة ووجد :

ـ أنت أنقذتنى بسرعة بديهة سابقت القدر ذاته .. ومخك بالأشعة وبكافة الأجهزة سليم مائة فى المائة ! إذن فأنت مجرد هارب من وعيك بإرادتك .. أى شىء مخيف هذا الذى يدفعك إلى الفرار من الحياة بهذا الشكل الفظيع ؟؟؟!

واحتقن وجه الطبيبة الرقيقة بالرجاء فى أن يأتيها منه جوابًا ؟ ولكنها ما لبثت أن أيقنت أنها تحادث نفسها ..

.. ودخلت ممرضة بملف علاج جديد كانت قد طلبته الدكتورة فتناولته منها ودونت فيه شيئًا ما .. ثم ردته إلى الممرضة قائلة :

ـ أحضرى هذه الحقن فورًا .

.. وخرجت الممرضة وعادت سريعًا بالحقن .. وقامت الدكتورة (ليلى) بحقن مريضها بنفسها .. ثم سحبت الغطاء فوقه وهى تحتوى وجهه الساكن بعينيها المهمومتين به ثم ، مضت مغادرة الحجرة مع الممرضة .

* * *

.. فى مكتب الدكتور (رأفت) بالمستشفى راح الدكتور يشعل غليونه وهو يجلس إلى مكتبه الفخم ، ثم نظر إلى الدكتورة (ليلى) التى تجلس أمامه قائلاً بأستاذية :

ـ «سيد » عنده مشكلة قديمة فى المخ : «زيادة فى نسبة كهرباء المخ .. وأعراض هذه الحالة غالبًا هى صداع مزمن بالرأس وعصبية مزمنة أيضًا ممكن أن تتطور بتطور المرض إلى نوبات صرع .. وواضح من تحاليل دمه أنه كانت هناك محاولات لعلاجه « بالتجرتيول » ، لكنها لم تأت بنتيجة ... لكن من حسن حظه أنه ظهر فى فرنسا العام الماضى فقط ، دواء يقضى تمامًا على هذا المرض .. وقد أحضرته واستخدمته هنا فى المستشفى بنجاح .. »

وصمت الدكتور لبرهة عاش فيها مع غليونه بانسجام ، ثم عاد إلى الموضوع :

ـ تبقى المشكلة الرئيسية ..

ـ تقصد حضرتك الأزمة النفسية ؟

ـ بالضبط .. « سيد » تعرض لصدمة عصبية كبيرة ، هى التى فعلت به ذلك ..

ـ إذن هناك أزمة نفسية بخلاف مرضه العضوى القديم .

ـ مرضه القديم اعتبريه انتهى .

ـ إذن تبقى الأزمة النفسية .. ومؤكد يمكن علاجه منها أيضًا ..

ـ قد لا يكون الأمر بهذه البساطة .

ـ كيف يا دكتور ؟

ـ فى الحالات المشابهة لحالة «سيد » هناك مرحلة يمكن تسميتها بـ « مرحلة ما قبل العلاج » .

ـ مرحلة رد الوعى المفقود .

ـ تملم .. ولكن حتى هذه المرحلة قد تكون سهلة مقارنة بما يليها .

ـ كيف .

ـ لأنه هناك احتمال صعب قد يفاجئ الطبيب المعالج فى المرحلة التالية .

ـ وما هى ؟

ـ أن يكون المريض نفسه رافضًا للعلاج رغم وعيه التام بمرضه ..

ـ وهل ممكن أن يحدث هذا ؟

ـ كثيرًا ما يحدث .. وهنا تكون مشكلة الطبيب .

ـ والحل فى مثل هذه الحالة ؟

أخذ الطبيب الأستاذ نفسًا طويلاً من غليونه ، ثم شرع يجيبها :

ـ المريض فى هذه الحالة بعد أن يسترد وعيه يفيق على إحساس مركب من الاكتئاب والمرارة ورفض الحياة .. والسبب غالبًا ما يكون صدمة عنيفة نتيجة سلوك غير متوقع من فرد أو أفراد تربطه بهم علاقة ما ..

ومضى الأستاذ مضيئًا الطريق لتلميذته :

ـ ورغم أن هذه الصدمة قد تختلف من حالة لأخرى من حيث طبيعتها وثقلها ؟ إلا أنه يوجد دائمًا مفتاح سحرى لانتشال المريض منها مهما بلغت صعوبة حالته ..

ـ وما هو يا دكتور ؟

ـ قدرة الطبيب المعالج على إقناع مريضه بأن الحياة ليست بالبشاعة التى يراها ، وأن الإنسانية غير مختزلة فى هؤلاء الذين طعنوه بسلوكهم غير المتوقع ..

وصمت الطبيب الكبير ، بينما راحت تلميذته تتطلع إليه مأخوذة بعبقريته وأستاذيته ، ولم تملك إلا أن تقول له :

ـ « سيد » محظوظ بعلاجه على يديك يا دكتور .

وابتسم الطبيب الكبير ابتسامته الحانية الهادئة ، ونهض خارجًا من خلف مكتبه حتى وقف أمام ابنته يتأملها لبرهة وغليونه فى فمه ، ثم رفعه قائلاً :

ـ « سيد » مريضك أنت وحدك يا دكتورة .

ذُهلت الطبيبة الشابة :

ـ أنا ؟؟!

ـ طبعًا أنت ..

ـ أنا ممكن أنجح فى علاج « سيد » ؟!

ـ لن يعالجه غيرك .

ـ لماذا ؟

ـ لأنك مدينة له بحياتك يا دكتورة .

★ ★ ★

الفصل الخامس

خضع (سيد) لكورس علاج مكثف وضعته الدكتورة (ليلى) تحت إشراف الدكتور (رأفت) ، وأخذت على عاتقها مهمة تنفيذه بنفسها مما جعلها شبه مقيمة بالمستشفى .. وكانت النتيجة أنه قبل أنتهاء الأسبوع الثالث من العلاج بدأت بوادر استرداد الوعى تظهر على (سيد) بالتدريج .. بينما الدكتورة (ليلى) ترقبه بهدوء ظاهر يطوى تحته لهفة مستعرة على معرفة حجم المسافة التى قطعها مريضها فى مشوار عودته إلى منطقة الوعى والشعور .. وقد دفعتها لهفتها هذه إلى الجلوس بجواره لساعات طويلة وعينيها على وجهه .. وإذا بها تفطن إلى شىء أدهشها .. وهى أن إحساسها بـ (سيد) والذى يربطها بجواره هكذا ليس مجرد إحساس المدين نحو الدائن .. صحيح هو أنقذها من مصير بشع وافتداها بنفسه .. ولكن إحساسها نحوه لا يتوقف عند هذه النقطة رغم التسليم بقيمتها ..

إحساسها بالدين موجود فعلاً .. لكن ثمة إحساس آخر يزاحمه .. يحاول أن يخرج من شرنقته .. أن يعلن عن وجوده .. إنه إحساسٌ عذبٌ شهيّ .. ولكن ما هو ؟ ما كينونته ؟

ماذا يمكن أن يسمى ؟ لا تعرف .. كل ما تعرفه الفتاة الرقيقة أنها مشدودة إلى هذا الـ «سيد» .. وأنها كلما نظرت فى وجهه خفق قلبها كعصفور رقيق حين تهب عليه نسمة حلوة فتغمره بالرغبة فى الرفرفة بجناحيه .. وراحت الفتاة تطيل النظر فى وجهه الشارد عنها وكأنها تسأله بنظراتها الحائرة الوجلة عن معنى هذا ..

وكأنها ترجوه أن يكف عن فراره الموغل فى اللاوعى .. وأن يعود ..

وعاد المسافر ..

عاد إلى وعيه مرغمًا بفعل الأدوية .. وتجلّى ذلك من الحياة التى دبت فى عينيه طاردة البلاهة المعششة فيهما .. أدار عينيه فى الحجرة حتى استقرتا على وجه الملاك الجميل الجالس بجواره .. تأمل وجهها بنظرة دهشة مخنوقة بحزن غامض .. وهاجت فى الدكتورة مشاعر شتى ، وهى تتلقى أول نظرة منه ، وقد أفصحت عن هيبة وجلال شخصية صاحبها .. وإذا بكيان الفتاة الملائكية كله يهتف بداخلها فى لهفة عاتية ؟ « هيا يا ملاكى .. تكلم .. أسمعنى صوتك » .. وراحت عيناها الفاتنتان تصرخان بلهفتها فى هياج محموم رغم هدوئها الظاهر .. يتكلم ملاكها ! وجاء صوته هادئا متأنيًا رخيمًا كأصوات نبلاء العهد الملكى :

ـ أين أنا ؟

يا اللّه !! أخذت الفتاة الملهوفة .. أخذت بطريقة سؤاله المرفّلة بالجلال والشجن .. وكان عليها أن تجيبه :

ـ فى المستشفى ..

ـ لماذا ؟

ـ لأن حضرتك تعرضت لحادث بسيط ..

ـ حادث ؟!

رددها بدهشة هادئة .. ثم شرد بنظراته وكأنه يستوضح ذاكرته عما حدث له .. ولكن الفتاة أسرعت تسترده من شروده ، وكأنها تخشى رحيله عنها مرة أخرى :

ـ أنا الدكتورة (ليلى) .

التفت إليها بنظراته الحزينة دون جواب ؟؟ وأسرعت هى تهديه ابتسامتها الحلوة :

ـ ألم تعرفنى بنفسك ؟

وبدا واضحًا أنه ما زال مشوشًا بضباب فيافيه العائد منها ، ومع ذلك أجابها :

ـ أكرم .

ـ حمد لله على سلامتك يا أستاذ أكرم .

ـ متشكر .

وراحت الفتاة تبحث عن سؤالها التالى دون أن ترفع عينيها عنه .. ووجدته :

ـ بماذا تشعر الآن ؟

ـ برغبة فى النوم .

ملأت عينيها الجميلتين من بهاء وجهه بنظرة متأنية قبل أن تسأله بحنان طاغٍ :

ـ ممكن تأخذ منى حقنة واحدة فقط ؟

ـ أردفت وكأنها تعتذر :

ـ مضاد حيوى لأجل الجروح البسيطة التى فى جسدك وحقنته .. ولم يكن دواء الحقنة سوى مهدئ لطيف أزاح (صهد) انفعالاته ، وأرسله فى نوبة سبات عميق ..

* * *

ومثل أية فتاة حين تجد نفسها مزدحمة بمشاعر جديدة عليها انطلقت الدكتورة (ليلى) إلى صديقتها (منى) لتحكى لها .. وبدا واضحًا أن لديها الكثير الذى تريد البوح به حتى أن صديقتها هى التى بادرتها متسائلة عما بها .. وأجابتها الدكتورة محمومة :

ـ « أكـرم » .

ـ « أكرم » ؟! « أكرم » من ؟

ـ « سيد » .

وازدادت دهشة (منى) وهى تردد :

ـ « سيد » ؟

ـ أقصد « أكرم » الذى كان « سيد »

ولم تنتبه الطبيبة الشابة إلى تلك السحابة الغامضة التى عبرت وجه صديقتها وهى تردد :

ـ الجدع المجذوب الذى أنقذك ؟!

هذا المجذوب الآن بهاء مجسم تشتهيه عيناكى .

واندفعت الدكتورة تحكى وتحكى لصديقتها بلا تحفظ .. فهى مع (منى) وأسرتها تجد نفسها على طبيعتها ، وكأنها واحدة منهم .. إنها تحبهم وتطمئن إليهم .. ورغم بساطة معيشتهم إلا أن الدكتورة كانت تشعر بينهم بسكينة وراحة نفسية لاتجدها فى أى مكان آخر .. ولم يكن مرجع ذلك إلا جو التقوى والتديّن المخيم عليهم .. فالأبناء جميعًا جامعيون ومهذبون ويحافظون على فروض دينهم مما أسبغ عليهم هذا الجو الرائع من السكينة والرقى .. وكان الفضل كله فى ذلك للأم الفاضلة التى أحسنت التربية ومازالت وكانت (منى) إفرازًا طيبًا لهذه الأسرة الصالحة ، فضلاً عن رقتها وشفافيتها ، ورجاحة عقلها !!!!

* * *

الفصل السادس

ـ ما تنبأ به الدكتور (رأفت) للدكتورة (ليلى) تحقق .. استرد (أكرم) وعيه .. نعم ..

ولكن ها هو يبدو كأنه قبوٌ مغلق يستعصى على الفتح ..

فقد همت الدكتورة ببدء مشوارها معه للوصول إلى تلك الظروف الرهيبة الغامضة التى صرعت نفسيته على هذا النحو المدمر .. وهذا يقتضى أن يتكلم هو .. أن يفتح لها قلبه ..

ولكن هيهات ..

فقد راح الشاب البائس يصد كل محاولاتها بصمته المطبق رغم أنه كان فى داخله يغوص فى بحر من النار .. وبدا ذلك جليًا للطبيبة الإنسانية من هول العذاب المروع المصلوب على وجهه .. وراحت تبتهل له بنظراتها الحزينة لأجله كى يترفق بنفسه ..

وعادت تبذل معه المحاولة تلو المحاولة .. ولكن محاولاتها كلها باءت بالفشل .. ولم يزدها ذلك إلا إصرارًا على إخراجه من خلف هذه « الأسوار اللعينة » التى اعتصم بها ..

ولكن كيف ؟

ليس أمامها سوى الطريق الأخير الصعب وهو أن تستفزه .. ومضت تفعل ، وهى تعلم أن استفزازه لن يتأتّى بسهولة لأنه سيفطن إلى الغرض منه .. ولكنها أُصيبت بدهشة طاغية حينما

فوجئت بأن السؤال الذى حطم مقاومته وأطلق «حمم براكينه» ، لم يكن سوى سؤال روتينى عادى حينما سألته عن أسرته وأهله ..

فما كادت تفعل حتى انفجر فيها صارخًا يطالبها بالكف عن الكلام .. ولكنها لم تكف .. بل أسرعت تنتهز الفرصة وانهالت عليه بالأسئلة ..

ولم تنتبه إلى خطورة ما تفعله إلا حينما انقض عليها يريد أن يقذف بها خارج الحجرة .. ورغم أن الممرضين سارعوا باقتحام الحجرة والإمساك به .. إلا أن الطبيبة الشابة أمرتهم بتركه والانصراف فورًا لتستدير نحوه قائلة :

ـ اضربنى يا أستاذ (أكرم) .. اضربنى إن كان هذا سيريحك ..

ووقفت الفتاة الرقيقة أمامه مستسلمة وعيناها تنفطران حزنًا لأجله .. وإذا بالمارد الهائج داخل مريضها يهتزه وينكمش مفسحًا الطريق «للإنسان المعذب .. »

وتهاوى « المسكين » جالسًا على الفراش معتصرًا رأسه المشتعل بيديه .. وراح يتطلع إلى طبيبته مستغيثًا من جحيمه المضرم بداخله .. ودنت منه الطبيبة الملاك وجلست بجواره وأخذت رأسه بين يديها الرقيقتين هامسة له بكل حنانها :

ـ لا شىء فى الوجود يستحق عذابك هذا .

وراحت تحتضن وجهه بعينيها الحانيتين .. بينما راحت نظراته هو تتوسل وجهها الجميل فى إجهاد .. وشعرت الفتاة الطيبة كم هو متعب الآن فمددته فى فراشه ، وحقنته بالمهدئ ليذهب فى نومه ..

* * *

.. ومضت الطبيبة الشابة إلى والدها فى مكتبه لتقول له على استحياء :

ـ دكتور (رأفت) : ممكن أستأذن حضرتك فى نقل (أكرم) إلى الجناح المتميز ؟

ولم يكن الجناح المتميز سوى الجناح المخصص لكبار المسئولين والصفوة ، وأجابها الدكتور (رأفت) من خلف مكتبه :

ـ أنا أمرت بذلك من ساعتين فقط والممرضات تجهزنه الآن .

تطلعت إليه الابنة بامتنان بالغ وقالت :

ـ شكرًا يا دكتور .

وابتسم الطبيب الكبير وراح يشعل غليونه الشيك ، ثم إذا به ينهض ويخرج من خلف مكتبه بهدوء وتمهل حتى وقف أمام قطته الجميلة يتأملها بنظرة حانية باسمة ، ثم يقول بصدق متناهٍ :

ـ لو كان الأمر يحتاج لإخلاء المستشفى كله لأجله لفعلت .

وفوجئت الفتاة :

ـ معقول يا بابا ؟!

رفع الطبيب شعرها الحرير إلى الوراء بيده ليملأ عينيه من وجهها العذب .. ثم قال بأبوية خالصة :

ـ هذا الشاب أنقذ حياتك .. حياة قلبى الذى يسير أمامى على قدمين .. وفى أفضل الاحتمالات لولاه لكنتِ الآن ممدة فى الفراش بين الحياة والموت .

ـ هذا لا يغيب عن بالى أبدًا يا بابا .

وإذا بالرجل يفصح أكثر عمّا يجيش فى ضميره :

ـ جئتى تستأذنيننى فى جناح له ، وأنا أقولها لك بكل الإخلاص .

كل ما أملك مُجند لأجله إلى آخر العمر ..

ـ أيمكن أن يبلغ كرمك معه هذا الحد ؟

ـ ليس كرمًا يا فتاتى .. بل حبًا .

ـ أتحبه يا بابا ؟!

ـ الذى لا تعرفينه يا بنتى أننى يوميًا بعد «صلاة الفجر» آتى إليه وأظل أتأمله وهو نائم حتى طلوع النهار ..

وفوجئت الفتاة .. وراحت تتطلع إلى أبيها مبهورة ..

وإذا بالرجل يضمها فى صدره بكل حنانه .. وإذا بها تسكن فى حضنه كقطة صغيرة ارتوت لتوها .. ولم يقطع جلال هذا الفيض الإنسانى سوى قولها :

ـ حتى الآن هو « لغز مغلق » لا نعلم عنه شىء .

وإذا بالرجل يقول بهدوء :

ـ على فكرة .. الممرضون وهم يبدّلون ثيابه يوم الحادث وجدوا تحت « جلبابه » كيس قماش به لفة أوراق ..

انتبهت الفتاة :

ـ وماذا فيها ؟

ـ لا أدرى .

ـ وأين هو إذن؟

ـ اسألى الممرضين .

ـ عن إذنك يا بابا .

وانطلقت الفتاة قاصدة الممرضين .. وعثرت على الأوراق ..

وكانت رواية مطبوعة وسيناريو فيلم سينمائى عن نفس الرواية .. والمؤلف هو « أكرم توفيق » !!!

★ ★ ★

الفصل السابع

.. لم تصدق الدكتورة (ليلى) عينيها وهى تجرى على سطور الرواية .. غشيتها حالة دامغة من الذهول من عبقرية الحكى .. ونبل المعانى ، وعذوبة الكلمات .. وهتفت فى نفسها :

ـ « هذا الرحيق لا يمكن أن يخرج إلا من كيان نورانى » ..

(أكرم) : من فعل بك هذا ؟

أية شياطين هذه التى هان عليها إنسان مثلك ؟

كيف هان عليهم أن يطفئوا عقل بهذا النور الربانى ؟؟

« يا اللّه » ! أيوجد فى الدنيا شر بهذا الطغيان ؟!!

.. وانتفضت الفتاة من خلف مكتبها ، وانطلقت بسيارتها قاصدة المستشفى رغم تجاوز الساعة الثالثة فجرًا ..

وسمعها (أكرم) وهو يقف خلف نافذة حجرته مرسلاً نظراته الحزينة إلى مجهول لا يعلمه إلا هو ..

سمعها خلفه تردد فى ذهول :

ـ « أشجار الحب » !

ـ ماتت يا دكتورة .

.. أدارته نحوها بيدها وهى تمسك بروايته « أشجار الحب » وهتفت مستنكرة :

ـ مستحيل تموت .

ـ ماتت يا دكتورة .. « أشجار الحب » ماتت .

ـ من هذا الذى يستطيع أن يميتها ؟

ـ كثيرون .

ـ هؤلاء الكثيرون لا شىء .. لا شىء بالمرة ..

ـ ربما .. ومع ذلك ذبحوا « أشجار الحب » وأفكاره ، وشموسه وكل ما يخصه ..

ـ لو استطاعوا لقلنا على الدنيا السلام .

ابتسم (أكرم) ساخرًا مسرورًا :

ـ ها أنا أمامك .. أتريدين أكثر من هذا دليلاً ؟

صدقينى : الحب مات .. فى القلوب يا دكتورة .

هتفت الفتاة الملائكية مستنكرة :

ـ كيف تقول هذا ؟! كيف تقوله وأنت الأديب المؤتمن من « الله » على هذا الحب ؟؟

وكاد صوتها يختنق بالبكاء ولكنها ما لبثت أن هتفت فيه بقوة وثقة :

ـ اسمع يا أستاذ .. يا أديب :

ـ « الفلاح البسيط حين يغرس بذرة فى تربة ما لا يمكن أن يفعل إلا وهو واثق كل الثقة فى أن هذه التربة ستضمن الحياة لبذرته التى يغرسها ..

فما بالك « بالخالق الأعظم » حين يغرس الحب فى قلوب يصطفها .. »

وبُهت للذى سمع ..

* * *



الفصل الثامن

.. دار جهاز الكاسيت ليتلقى بوح (أكرم) وقد استرخى تمامًا فى فراشه بينما جلست الدكتورة (ليلى) أمامه فى سكون وترقب .. وتكلم (أكرم) :

- نعم .. أنا (أكرم توفيق) الابن الأكبر لأسرة فقيرة مكافحة .. دخلت المدرسة ولم أكن مجرد تلميذ عادي .. كنت أحب مدرستى ودروسى وأساتذتى .. كنت متفوقًا ، ومحبوبًا ، وموضع إعجاب .. ولم أكن مجرد ابن عادى ..

كنت أحب أمى وأبى إلى حد التقديس .. ولم أكن مجرد أخ عادى .. كنت أحب أخوتى وكأنهم قطع من قلبي تتحول أمامى .. كنت أحب (فؤاد) الطيب فقد كان طفلا نورانيًا تسرى فيه نفحة ربانية تجعلك تحبه وتتعلق به .. وكنت أحب (عزت) الوسيم بطبعه الرجولى واعتزازه بنفسه ..

وأما (منى) فقد كان حبى لها حكاية ! أحببتها كأخت .. أحببت فيها جمالها غير المعقول .. فقد بدا وجهها وكأنه مخلوق من الحليب المصفى يتوجه شعر نحاسى ناعم غزير مسترسل على ظهرها متباهيًا بجماله .. وكانت ملامحها آية من الإبداع الإلهى .. وكانت رقيقة : أرق من أية نسمة ربيع سرت فوق الحقول والبساتين ..

وكانت ابتسامتها حكاية !

وضحكتها حكاية !

وكان حبى لها ألف حكاية وحكاية !

ورغم أننا كنا أسرة فقيرة إلا أن الفقر لم يستطع أبدًا أن يشعرنا بوجوده .. فقد كنا بحنان أبوينا .. وحبنا لبعضنا .. وخُلقنا الطيب .. وبمكانتنا الجميلة لدى الجيران والأصدقاء والأهل .. بكل هذا كنا أقوى من الفقر ، ومن مخالبه ..

وهكذا لم يكن لدىّ مشكلة فى حياتى إلا هذا الصداع المزمن فى رأسى ، وعصبيتى الحاضرة أمام أى استفزاز تافه ..

وكبرت وأنا أتقدم فى دراستى بتفوق وفى المقابل يزداد ذلك الصداع الغبى فى رأسى شراسة ، ومعه تزداد عصبيتى حتى اضطرت أمى إلى اللجوء بى لطبيب أمراض عصبية لتكتشف أنى مصاب بمرض فى المخ ، نتيجة تعرضى وأنا ما زلت فى المهد طفلاً لحمى تركت آثارها على مخى ..

.. وبدأت رحلتى مع المستشفيات .. وبدأت مشوار طويل مع العلاج ، ولكنه كان متقطعًا بسبب الظروف المادية لأسرتى مما تسبب فى تطور الحالة .. وطغيان عذاب رأسى وعصبيتى ومع ذلك رحت أتقدم فى دراستى بتفوق .. فلم يكن لشىء أن يوقفنى عنها ..

.. وأخيرًا .. وضعت قدمى على أرض الجامعة .. ويالها من فرحة .. فرحة بثمرة اجتهادى .. وفرحتى بأنى رفعت هامة أسرتى الفقيرة ، وأسعدت قلوب أبوى وأخوتى ..

وأخيرًا .. تلك الفرحة التى تخصنى أنا وحدى :

فرحتى بانتصارى على هؤلاء الناس الذين راحوا يصفوننى فى نوبات هياجى العصبى ، بأننى مجنون ، أو عديم التربية .. سامحهم « الله » ..

* * *

.. دخل والدى ـ الذى كان يمتلك محل بقالة صغير فى بلدته بالوجه القبلى ينفق منه علينا ـ على أمى ليقول لها كلمتين اثنتين :

ـ أنا تزوجت !

وسقطت أمى ، وسقطنا معها فى جُبٍّ سحيق نصرخ فيه «لماذا ؟! وكيف ؟! » ولم يجبنا والدنا الذى ليس لنا فى الدنيا سواه .. بل أسرع عائدًا إلى عروسه فى بلدته لينسانا تمامًا ..

هكذا بدون سابق إنذار قفز الربان من السفينة وهى فى وسط البحر دون أدنى مبالاة بمصيرها .. وكان لا بد أن يقفز أحد ركابها إلى الدفة ..

وكان طبيعيًا أن يكون هذا « الأحد » الابن الأكبر للأسرة الذى هو « أنا » ..

ولم يكن هناك وقت للتردد أو التفكير .. فأسرعت بترك كليتى ، والبحث عن مصدر رزق .. وتنقلت بين عدد من الأعمال .. وبالطبع كانت كلها أعمال متواضعة .. فلم أكن أملك شهادة عُليا ولا حتى متوسطة متخصصة ..

مجرد « ثانوية عامة » .. لا تسمن ولا تغنى من جوع ..

وانتهى بى المطاف بالعمل كسائق تاكسى .. ويالها من مهنة تحتاج إلى تركيز وانتباه ، وتجعل أعصاب صاحبها مشدودة بدرجة مؤلمة ، وتعرّضه لاستفزازات لا حصر لها ..

والسائق هنا رأسه مريضة وأعصابه مشتعلة .. فضلاً عن انهماكه فى عمله لأكثر من خمسة عشر ساعة متواصلة يوميًا .. وكانت النتيجة أن صارت رأسه كتلة من العذاب .. وكم كان مؤلمًا أن تنساب دموعه من عينيه ألمًا وأنينًا وهو ينطلق بزبائنه إلى مقاصدهم ..

ولكن فى النهاية .. كنت أعود إلى أحبائى ـ أمى وأخوتى ـ بما رزقنى به ربى .. وكان وفيرًا .. ولكن آلام رأسى وعصبيتى كانت أكثر وفرة ..

وصارت عصبيتى مع أمى وأخوتى لا تُطاق ، فقد راحت نوبات الهياج العصبى تحولنى إلى شبه مجنون لا يعى ما يفعل بأحب الناس إليه ..

ولكن عزائى كان فى ثقتى فى علمهم بمدى حبى لهم .. وكان عزائى الآخر فى ممارستى لموهبتى التى هى أجمل ما أنعم به « ربّى علىّ » : الكتابة ..

ويا لها من ساعات جميلة ـ تلك ـ التى كنت أقضيها أمام أوراقى البيضاء أنثر فوقها مشاعرى وبوح وجدانى ..

كانت ساعات قليلة .. ولكنى خلالها كنت أحلق فوق الوجود كطائر لا يحمل فى قلبه غير الحب ، ولا ينشد من وجوده غير الحب !

* * *

ومضت الأيام بحلوها ومرها مقتربة بالسفينة من مرفأ الأمان .. وبدأ أخوتى يتخرّجون من كلياتهم الواحد بعد الآخر .. (فؤاد) من كلية « الآداب » .. ثم (عزت) من كلية « التجارة » .. ثم (منى) حبيبتى وفاتنتى من كلية « الحقوق » ..

ما أبهى الدنيا فى نظرى بهذه الزهور اليانعة !!

لقد أنستنى هذه النتيجة كل عذابى المرضى ومشقة مشوارى المضنى .. ورحت أُحلّق فى السماء مع أمنياتى الحلوة ، وقد صرت رب أسرة يعجز الكثيرون عن بناء مثلها ..

وبالطبع لم يكن الفضل فى ذلك لى وحدى .. فقد كانت هناك أمّى ... تلك السيدة الرائعة بحكمتها وتقواها ، وحنانها وصبرها الجميل ..

لقد زرعت فينا هذه الأم كل ما هو فضيل وجميل .. وكان هناك أخوتى أنفسهم ، بكل تآلفهم ورُقيّهم ، والذى كان يزيدنى حبًّا لهم يومًا بعد يوم حتى صرت أهفو إلى كل ما يسعدهم ..

لقد كنت أجوب الشوارع بالتاكسى ، وأنا سابح فى أحلامى بأن أرى (فؤاد) و(عزت) فى وظائف مرموقة ..

أما (منى) فقد رحت أحلم لها بمكتب المحاماة الذى تتمناه ..

كنت أتخيل ذلك المكتب بموكليه وملفات قضاياهم ..

وبالأستاذة الجميلة الجالسة خلف مكتبها تطمئنهم وتعدهم بالنصرة فى قضاياهم .. وكنت أتخيل تلك اللوحة الضخمة التى تغطى واجهة المكتب مكتوبًا عليها « مكتب الأستاذة منى توفيق المحامية » .. وكنت أتخيل الأستاذة فى روب المحاماة بكل جمالها وبهائها وهى تصول وتجول فى قاعات المحاكم .. وكنت كلما رأيت فتاة جميلة تقود سيارة أنيقة .. تخيلت (منى) الأكثر جمالاً وهو تقود سيارة أكثر أناقة ..

.. وهكذا راحت تهب علىّ نسائم الجنة الموعودة

فتدفعنى إلى العمل أكثر .. بل إننى قررت أن أهدى أمى وإخوتى شيئًا جميلاً يرفع هامتهم أكثر وأكثر .. فكان أن أصدرت روايتى الأولى « أشجار الحب » .. وكم كان رائعًا ومدهشًا أن تعرض رواية تحمل اسمى بين مؤلفات مفكرين وأدباء ماكنت لأعلم بمشاركتهم هذا الشرف الرفيع : أنا .

« سائق التاكسى الفقير عليل المخ !! »

وبدا الأمر وكأن أيام الشقاء تلملم أذيالها تأهبًا للرحيل .. إلا نيلاً واحدًا .. علة رأسى والتى كانت قد طغت وتوحشت .. ثم إذا بشىء جديد فى سلوك إخوتى معى يستوقفنى وهو أنهم بدءوا يضيقون بعصبيتى ..

ثم إذا بهم يتصدرون لى بقوة فى نوبات هياجى فتداهمنى الدهشة حين أعود إلى رشدى من قسوتهم علىّ ، والتى كانت شيئًا جديدًا وعجيبًا حقًا ..

ومرة بعد مرة .. بدأت دهشتى تزول لتحل محلها مرارة فوق مرارة .. وأنا أرى أحب الناس إلىّ تتحجر قلوبهم علىّ .. يا إلهى !

ماذا أصاب أمى وإخوتى ؟!

هل نسوا أنى مريض ؟؟

هل عميت بصيرتهم عن أنى فى نوبة هياجى أكون فى

أمس الحاجة إلى رحمتهم وأحضانهم ونجدتهم لى من جهنم المضرمة فى رأسى ؟؟؟!

هل عميت القلوب التى فى الصدور ؟!

لقد بلغ الأمر بهم أن راحوا يتجنبونى !! نعم قاطعونى .. وبتُّ أعيش وحدى .. وأنام وحدى .. ورحت أهوى فى ذهولى .. وراح الاكتئاب ـ العدو الأول لمرضى ـ يداهمنى .. وراحت حالتى تزداد تدهورًا حتى فُتحت كل أبواب جهنم فى رأسى دفعة واحدة ..

وإذا بهم ذات ليلة مشئومة يستيقظون على صراخى وأنا أضرب رأسى بيدى مستغيثًا من نار جهنم المشتعلة فيها .. وأحطم كل ماتصل إليه يدى من هول عذابى .. وإذا بالأستاذين (فؤاد) و(عزت) يسرعان بالانقضاض علىّ وتكميم فمى ـ حتى لا يسمع بى الجيران وتكون فضيحة لهم .. ورحتُ أقاومهما وهما يطرحانى أرضًا ويضربوننى لأكف عن الصراخ ..

وإذا بالأستاذة (منى) المحامية تصرخ من خلفهم :

ـ « ألقوا به فى الشارع » !!!!!!

ومن تحت الشقيقين العزيزين الجاثمين فوقى ..

أرسلت إلى الأستاذة بآخر نظرة قبل أن أغيب عن الوجود !

ـ ويبقى السؤال :

أين أمى الفاضلة من كل هذا ؟

لقد منعوها من الدخول علىّ حتى يتولوا أمرى واستجابت هى لهم !

* * *

واستدار (أكرم) بدموعه المندفعة من عينيه نحو الدكتورة (ليلى) وهو يختم الحكاية :

ـ وفتحت عينى لأجد نفسى ممددًا فى فراش المستشفى وأنت تجلسين أمامى يا دكتورة !

ولم يدر (أكرم) إذا كانت الدكتورة قد سمعته أم لا ...

فقد غابت عيناها هى الأخرى خلف ضبابة ثقيلة من الدموع .. وهى تحدّق فيه بذهول فاجع !

* * *

الفصل التاسع

.. انطلقت الدكتورة (ليلى) بدموعها .. واندفعت خواطرها الذاهلة تسابق سرعة سيارتها وهى تضرب فى الشوارع على غير هدى :

ـ يا إلهى !! أى خيال بشرى يمكن أن يتسع لكل هذا !

ـ « يقبض علىّ الهلاك شر قبضة ، فلا ينقذنى منه إلا هائم بشع غائب العقل من هوام الشوارع .. ثم إذا بهذا ـ « الهائم البشع » ـ « غائب العقل » ـ أديبًا عبقريًا ـ وشابًا رائعًا .. ثم إذا بهذا الأديب الرائع شقيقًا لصديقتى الحميمة .. ثم إذا بأسرة صديقتى التقية المتراحمة شر مثال للجحود والقبح الإنسانى !! »

ما كل هذا يا إلهى ؟!

أية دراما تلك التى تنسجها قريحة القدر ليذكّرنا مع كل إشراقة شمس « أن فوق كل ذى علمٍ عليم » ؟!

ووجدت الدكتورة المخنوقة نفسها تتوقف أمام منزل (منى) .. وفوجئت أسرة (منى) بالدكتورة « بنت الأكابر » دامعة العينين مخطوفة الوجه ..

تقف أمامهم تتفرس وجوههم بنظرات ذاهلة شرسة .. وبدت الطبيبة المصدومة ، وكأنها تريد أن تنشب أظافرها فى وجوههم

لتزيل هذه الأقنعة الزائفة ، وتكشف ذلك القبح المزرى المعشش خلفها ..

.. و داهمت الدهشة أفراد الأسرة وهم يرونها بهذه الحال .. ودنت (منى) تسألها بانزعاج عمّا بها .. وهمت الأم بأن تأخذها فى حضنها وهى تسألها :

ـ ماذا بك يا بنتى ؟

وإذا بالدكتورة (ليلى) تسألها ..

ـ أين (أكرم) يا طنط ؟

وسقط الطير على رءوس الجميع ، وهم ينظرون إلى بعضهم مبهوتين ..

وبدت الأم وكأن سكينًا مسمومة رُشقت فى قلبها .. وسقطت نظراتها على الأرض كَسيرة .. ولكن الفتاة الإنسانة لم تدعها :

ـ أين (أكرم) يا أم .. يا فاضلة ! يا تقية ؟!

وراحت تدور بسؤالها المُرّ على الباقين :

ـ أين (أكرم) يا أستاذ (فؤاد) يا طيب يا متديّن ؟

ـ أين (أكرم) يا أستاذ (عزت) يا « جنتلمان » ، ورقيق مع كل الناس ؟

ووصلت إلى (منى) .. ووقفت أمامها تصب عليها نظراتها كشلالات من اللعنة والاحتقار ، وهى تقول :

ـ أما أنت يا أستاذة (منى) .. يا محامية نابغة ! يا من أسرتينى بتدينك ورقتك ! أقولها لكِ : أنا لست مصدومة من بشاعتك بقدر صدمتى من قدرتك على الخداع والتزييف .. وقدرتك الأكبر على التعايش مع قبحك ! الإنسان حين يدخل جسمه « ميكروب » تافه يربكه .. يشقية ألمًا ..

فكيف بإنسان يحمل فى جوفه « قلب شيطان » ومع ذلك يحيا ويمضى فى حياته ببساطة واقتدار ؟!

يا لها من قدرة أهنئك أنت وأمثالك عليها !! ورفعت الفتاة رأسها عاليًا تحتويهم جميعًا بنظرة احتقار وهى تقول :

ـ « تقواكم ناقصة لا خير فيها .. أخذتم من قدركم ما ظننتموه خيرًا .. ولفظتم ما ظننتموه شرًا وتناسيتم أن المؤمن من آمن بالقدر خيره وشره .. ومزقتم صلة الرحم التى جعلها « الله » عمودًا من أعمدة الإيمان به ، مزقتموها شر ممزق .. فلبئس إيمانكم وتقواكم .. »

.. واستدارت الفتاة منصرفة تاركة أصحابها خلفها « كأعجاز نخل » ..

* * *

وانطلقت الدكتورة (ليلى) تنهب الطريق بسيارتها نهبًا قاصدة المستشفى .. ووقفت مع والدها أمام (أكرم) تهتف فيه بعزم أذهل والدها نفسه :

ـ أستاذ (أكرم) :

هذا هو الدكتور (رأفت عبد العظيم) أكبر أساتذة جراحة المخ والأعصاب فى «مصر» .. وأنا كطبيبة أمراض نفسية نقول لك :

ـ أنت الأن لست مريضًا .. الصداع والعصبية اللذان كنت تعانى منها منذ طفولتك .. كان سببها مشكلة بسيطة فى المخ عالجها الدكتور (رأفت) وزالت بلا رجعة ! وأما ما حدث لك من أسرتك فهو ليس ذنبك .. والإنسان الطبيعى لا يحق له أن يتألم من أمر لا ذنب له فيه ..

وأنت الآن إنسان طبيعى .. بل أنت الأديب المفكر المفترض فيه أن يعلمنا الحكمة ويمنحنا السمو ..

وتوقفت الطبيبة الصغيرة عن الاسترسال فى الكلام من شدة الانفعال ؛ حتى إن والدها الطبيب الكبير أشفق عليها والتفت إلى (أكرم) يتأمله فى حيرة .. بينما (أكرم) هو الآخر وقف لا يدرى ماذا يقول ، أو يفعل .. وإذا بالطبيبة تدنو منه وتسأله :

ـ تتزوجنى يا (أكرم) ؟

وصُعق الفتى .. وأسرع ينظر إلى أبيها مستغيثًا به .. وفوجئ بعينى الطبيب المهيب مثبتة عليه فى هدوء مثير دون أدنى رد فعل على وجهه يكشف شيئًا عما يدور بداخله .. ولم يطق الفتى صبرًا فهتف به مستغيثًا :

ـ دكتور (رأفت) !

وإذا بالرجل يجيبه بنفس هدوئه وثباته :

ـ الدكتورة (ليلى) سألتك سؤالاً ولم تجبها .

وأنت الآن إنسان طبيعى .. بل أنت الأديب المفكر المفترض فيه أن يعلمنا الحكمة ويمنحنا السمو ..

وأسقط فى يد الفتى .. والتفت إلى الطبيبة الأرستقراطية الجميلة مذهولاً .. فإذا بها تعيد السؤال على مسامعه بنفس الإصرار :

ـ تتزوجنى ؟

ولم يدر الفتى بنفسه إلا وهو يرفع يدها الرقيقة ليطبع عليها أول قبلة حب فى حياته ..

* * *

الفصل العاشر

.. تلألأت الفيلا الأنيقة ، وازدانت كأروع مـا تكون الزينـة .. أُضيئت الأنوار كلها النجف والثريات ولمبات الزينة الملونة .. وانتشرت باقات الورود البهيجة الطازجة فى البهو الرئيسى تفـوح عبيرها على الضـيوف المتأنقين من رجال وشباب وحسناوات .. جميعهم من صفوة المجتمع !

وبينما راح الدكتور (رأفت) يحتفى بضيوفه معطرًا المكـان بحضوره الطاغى ، ظهرت (كوثر هانم) فى غاية الجمال والأناقة ، وراحت هى الأخرى توزع عليهم ابتساماتها وعبارات الترحيب الرقيقة .. ولكن المدقق فى ملامحها ـ كان حتمًا ـ سيكشف ذلك القلق والترقب الهائجين بداخلهـا ، والتى كانت تهيجهـا علامـة الاستفهام الضخمـة المنتصـبة بداخلهـا فـى قسـوة وعناد .. والتى لن يجيب عنها ويريح (الهانم) منها سـوى حضور ذلك الضيف المرتقب !!

نعم .. هى تعى جيدًا عظيم فضلـه عليهـا وعلـى أسرتها كلهـا .. وهـى عرفت حكايتـه العجيبـة .. وسـمعت الكثـير الحميد عنه من ابنتها وزوجها .. ولكـن مـع ذلك كلـه يظل الأمر فى جملته غير منطقيًـا بـالمرة .. وخاصـة من وجهـة نظر سيدة أرستقراطية سليلة واحـدة مـن أعـرق عائلات

« مصر » .. وهى لم تخف ذلك كله عن زوجها وابنتها فمـا كـان منهمـا إلا أن أقنعاها بـالتريث فـى تكوين رأيهـا حتـى تلتقى ببطل الحكاية ..

وجاء بطل الحكاية ..

جـاءت بـه سـيارة الدكتـور (رأفـت) « المرسـيدس العيون » .. ونزل منها بصحبة الدكتـورة (ليلى) متجهين إلى الفيـلا .. وما إن ظهر بالبهـو الكبير حتـى توقـف كل شىء :

اللغـط والأنفـاس والنظـرات .. تعلقـت أفئـدة الجميـع وعيونهم بهذا الجمال الأسطورى الذى أطل عليهم :

(أكرم) بقوام الفرسان .. ووجه قمر .. وقد ارتدى حلـة باريسية من القطيفة الزرقاء اللامعة يضوى من تحتها قميص أبيض نـاصع البياض ، وكرافت إيطـالى مـن الحريـر الأزرق الموشى بخيوط ذهبيـة .. حتى حذائه كان تحفة فى موديله ولمعانه ..

وقـف الفتى البـاهر تحفه هـالـة وبهـاء خطفـا الأفئـدة

والأبصار ، وقد تأبطت ذراعه الطبيبة الحسناء مرتدية فستان سواريه جعلها فتنه خالصة ..

وتقدمت به (ليلى) نحو والديها .. وإذا بعينى (كوثر هانم) تحلق على وجهه مأخوذة ببهائه وهالته ، وقد اجتاحتها فرحة طاغية .. جرفت فى طريقها علامة الاستفهام البغيضة التى أسهدتها بقوة ..

وإذا بابتسامتها الجميلة تشرق فى وجهها وهى ترحب به :

ـ «حمدًا لله» على السلامة يا أستاذ (أكرم) .

ـ «الله» يسلمك يا (كوثر هانم) .. استقبالك الرائع هذا خير عنوان لنبل وعراقة أصلك .

ورفع يدها ليطبع عليها قبلة رقيقة بينما (الهانم) بالكاد تمنع نفسها من احتضانه ..

أما الدكتور (رأفت) فقد راح يتأمله بعينيه الباسمتين الساحرتين لبرهة .. ثم إذا به يضمه فى حضنه بقوة وحميمية دون أن يتفوه بشىء .. بينما راح (أكرم) يطبع على كتفه قبلة تجيش بكل مشاعر الحب والامتنان ..

ثم إذا بـ (ليلى) تأخذه من حضن أبيها وتتقدم به إلى الضيوف حتى وقفت أمامهم تقدمه لهم بسعادة طاغية :

ـ أقدم لكم خطيبى الأستاذ (أكرم توفيق) الأديب ..

وإذا بالمخرج السينمائى الكبير (يوسف البكرى) خال الطبيبة الفاتنة يدخل هاتفًا :

ـ والسيناريست يا دكتورة .

وإذا به يتقدم من (أكرم) بصحبة رجل مهيب أنيق ويقدمه له :

ـ الأستاذ (وجدى غنيم) المنتج السينمائى المعروف .. أصر على الحضور معى للتهنئة بالخطوبة وللتعاقد معك على السيناريو الرائع الذى عرضته علىّ الدكتورة .. وإذا بالبهو يضج بالتصفيق من الجميع وهم يمطرون العروسين الرائعين بالقبلات وهتافات الفرحة والتهنئة ..

* * *

ولم تمض سبعة أشهر إلا وكانت أفيشات فيلم « أشجار الحب » تملأ شوارع « القاهرة » وكثير من عواصم العالم حاملة اسم مؤلفه (أكرم توفيق) ..

* * *

تمت بحمد الله



بريق فى الظلام

فوزى عوض سعداوى

الفصل الأول

راح الأوز الأبيض يتهادى فوق مياه الترعة فى مواكب بهية جميلة ، بينما بدت القرية الصغيرة التى تعبرها الترعة فى نوبة استرخاء وسكينة بعد عناء يوم طويل حار .. كانت الشمس قد رحلت لتوها من سماء القرية بلهيبها الصيفى القاسى .. وانسابت الأشعة فى غروب فضى فوق خمائل القمح الممتدة خلف بيوت القرية بخضرتها المزهزهة فبدت الأرض ، وكأنها مزروعة بذهب أخضر يضوى خضارًا ساحرًا .. وفوق هذا البساط الأخضر الساحر وقف النخيل هنا وهناك بقاماته الممشوقة تتدلى من قممه سباطات البلح الأحمر بحمرته الأرجوانية الزاهية ، وكأنها نجف ربانى .. بينما اصطفت على الطريق المرصوف الذى يعبر القرية بمحاذاة الترعة أشجار الكافور والتوت والصفصاف ، وقد اكتست بقباب هائلة خضراء طرزتها أسراب السمان الأبيض وقد حط على الأغصان فى صفاء وسكينة ، وكأنه فى نوبة مناجاة صامتة مع خالقه .

وفيما عدا بيوت القرية القليلة المتكتلة على جانبى الترعة والطريق ، ومدرسة القرية الابتدائية التى تتوسط طريقًا ترابيًا آخر يمر خلف القرية وتمتد بمحاذاته حقول

شاسعة من القصب .. فيما عدا ذلك لم يكن هناك أثر لبناء يقطع روعة وبهاء هذه اللوحة الإلهية البديعة ..

تلك هى (السمطة) إحدى قرى محافظة (قنا) وأشد قرى الصعيد بأسًا ، وضراوة ، وتمسكًا بعاداتها وتقاليدها ..

وكان هدوء المساء قد راح يسود القرية الوادعة ، ولم يقطعه سوى ارتفاع آذان المغرب من مكبرات الصوت المعلقة فوق المساجد الصغيرة المنتشرة فى أنحاء القرية .. وبدت الحقول خالية من أصحابها والمشتغلين بها ، فقد عادوا جميعًا إلى ديارهم ، فيما عدا صبيًا أسمر كالح الوجه والثياب ، كان لا يزال على الطريق الترابى يسوق أمامه بقرتين وجاموسة ، وعددًا من الماعز والنعجات ، بينما يتقدم الموكب كهل أسمر معمم معروق الوجه ، تتدلى قدماه الحافيتان الضخمتان المشققتان على جانبى الحمار الكسول الذى يمتطيه ، بينما احتضنت ذراعاه حزمة ضخمة من الحشائش المعدة لعشاء البهائم ، وقد امتدت على يساره حقول القصب بأعوادها الطويلة المتلاصقة بكثافة كغابات مغلقة على نفسها يصعب رؤية ما بداخلها ، ومع ذلك كانت هناك فى قلب القصب عينان رهيبتان تشقان بنظراتهما الحادة هذه الغابات راصدة الطريق وما عليه !!

تلك كانت عيون (صالح أبو عتمان) الذى كان يجوس داخل حقول القصب ، وعيناه الرهيبتان على الطريق ، وبندقيته الآلية معلقة بكتفه ، وقد اكتسى وجهه الأسمر بجهامة تكشف عن غشم وتخلف صاحبها .. ورغم إنه لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره إلا أنه بدا بجهامته ، وسواد الغضب على وجهه ، وبجلبابه الأسود وعمامته السوداء وكأنه شيطان عتيق ..

مضى (الجهم) يجوس بين أعواد القصب صامتًا مرسلاً بصره إلى الطريق وكأنما لا أحد معه ، بينما كانت هناك من تسير بجواره محاولةً التحدث إليه منذ ما يقرب من الساعة :

(صابحة) ابنة عمه مدرسة اللغة العربية بمدرسة القرية الابتدائية .. فتاة تتفجَّر أنوثة وخفة ظل ، فى الثانية والعشرين من عمرها ، رشيقة كغزال برى ، لها وجه خمرى جميل ، وعينان عسليتان جريئتان تشعان سحرًا وشقاوة ، ينحسر إيشاربها الأنيق إلى الوراء قليلاً كاشفًا عن شعر كستنائى فى نعومة الحرير راح يهفهف فوق جبينها وخديها فى أنوثة طاغية ..

وطالت تمشية (صابحة) بجوار الفتى الصامت الشارد عنها بنظراته ، وراحت تحاول معه مرة أخرى بشقاوتها :

ـ إحم إحم .. هنا صوت الجمال يناديكم .

وراح صوتها أدراج الرياح ، فأردفت :

ـ ماهذا ألا يوجد هنا مستمعين ؟

ولم يعرها البجم أدنى اهتمام ، فعادت تهتف :

ـ إذن نحول إلى محطة الخرس .

وقفزت واقفة أمامه ، وراحت تتحدث إليه ببعض إشارات الخرس ، فإذا بالغبى يغمغم مندهشًا :

ـ الظاهر إنك جُننتى !

هتفت الفتاة مهللة :

ـ هيه .. الأخرس نطق !

صرخ فيها :

ـ (صابحة) !

ردت بسرعة وشقاوة :

ـ نعم يا (أبو الغضب) .

حدقها بنظرة غليظة مخيفة :

ـ ما هذا الذى تفعلينه ؟

ـ فرحانة يا حضرة الحبيب المتوحش .. عندك مانع ؟

همَّ بأن يزيحها من طريقه ويمضى عنها ، لكنها أمسكت به :

ـ قف وكلمنى كما أكلمك .

وإذا بالغبى يقبض على ذراعها بقسوة وغباء صارخًا فيها :

ـ الظاهر إن يومك أسود ، ماذا تريدين ؟

هنا فقط فزعت الفتاة ، تطلعت إليه معاتبة :

ـ أريد (صالح) .

ـ ومن أكون ؟ عفريته ؟

تخلصت من قبضته فى ألم ومرارة :

ـ أريد (صالح) ابن عمى ، وحبيبى ، وخطيبى .. (صالح) الذى فتحت عينى على رجولته وشهامته .. (صالح) الذى غمرنى بحبه وحنانه .. (صالح) الذى أسمعنى أول كلمة حلوة فى حياتى .. (صالح) الذى أوصاه والداى بى وبـ (نوارة) قبل موتهما فجعل من نفسه أبًا وأمًا لنا ، ولم يبخل علينا بشىء ، ولم يحرمنا من شىء .. (صالح) هذا غير (صالح) الواقف أمامى الآن .. غير (صالح) الذى يختبئ فى العتمة ، ويريد أن يقتل ، ويصير قاتلاً ومجرمًا ورد سجون .

ولم يصدق (البجم) نفسه .. ضربه الذهول ، فراح يتفرسها بنظراته المخيفة كالمجنون :

ـ بوووووووه يا بنت العم ! إذن فأنت جننتى فعلاً ! أعندما آخذ بثأر أخى أكون مجرمًا ورد سجون ؟ وماذا أفعل كى أكون شريفًا فى نظر حضرتك ؟! أترك ثأره ؟! أفرّط فى دمه ؟! أفرط فى دم (الفضل) ؟ أخى ابن أمى وأبى ؟! والله لقد ذهب عقلك يا بنت العم ؟!

ـ عقلى أنا لم يذهب يا (صالح) .. عقلك أنت هو الغائب .. عد إلى رشدك يا ابن عمى .. الذى قتل (الفضل) أخذ عقابه ، ولم يعد لك عليه دين إلا عند اللّه .. وإذا فعلتها أنت الآن وقتلته ستأخذ عقابك أنت أيضًا وتدخل السجن .

ـ نار السجن ولا جنة العار يا بنت العم .

غمغمت الفتاة فى سخرية مرّة :

ـ العار ؟!

ودنت منه تتأمله بنظرة إشفاق :

ـ العار الحقيقى يا (صالح) هو أن نتمسك بعادات متخلفة .

ـ متخلفة ؟! عاداتنا وتقاليدنا التى تربينا عليها متخلفة ؟!

ـ نعم يا (صالح) متخلفة .

تفرسها بعينيه الجاحظتين ساخرًا مغتاظًا :

ـ كيف يا بنت المدارس ؟!

ـ ألا تدرى كيف يا بن العم ؟ لأن البلد فيها قانون .. قانون ينصفنا ، ويقتص لنا دون أن نضيع أنفسنا .

وسرى فى الفتاة الأمل فى انتشاله من غياهب جهله ، فأردفت حانية :

ـ أنت هنا يا (صالح) منذ شهور .. منذ أن علمت أن ابن (الدهاشنة) يوشك على الخروج من السجن .. تركت أرضك ، ودارك ، وكل مصالحك ، وربطت نفسك هنا كى تقتله .. ونسيت أنك يوم قتله ستدخل السجن ، وتقضى فيه أجمل سنوات عمرك .. القانون يا (صالح) وفَّر عليك كل ذلك .. اقتص لك كى لا تضيع نفسك وشبابك ، فى حين أن الثأر المعشعش فى رأسك لن يجلب عليك سوى الخراب والضياع ، فهل هناك معنى لذلك سوى التخلف والجهل ؟

ومضت الفتاة فى محاولتها بإخلاص بينما (أبو الغضب) يتفرسها بعينيه الجاحظتين كاظمًا غيظه حتى قالت ما لديها فسألها بهدوء يطوى غيظه :

ـ أهذا هو الذى تعلمتيه فى المدارس يا بنة العم ؟!

ـ نعم يا (صالح) هذا هو :

ـ ألم يعلّموك أيضًا : (أن من قتل يُقتل ولو بعد حين) ؟ وألم يعلموك أن ربنا حلل لعباده القصاص ؟

ـ علّمونى يا (صالح) . لكنهم علمونى أيضًا أن القصاص هذا يوكل به (أولو الأمر) فقط .

ـ أولو الأمر ؟!

ـ نعم يا (صالح) (أولو الأمر) .. لأن القصاص شرّعة ربنا بغرض العدل .. ولو تركنا كل إنسان يطبقه على هواه لضاع العدل فى حالات كثيرة وحل محله الظلم ، لذلك المولى ـ عز وجل ـ وكل به أولى الأمر ، وأمرنا بطاعتهم .. يعنى حضرتك بإصرارك على الثأر لنفسك تريد أن تخالف شرع ربنا .

انتفض (أبو الغضب) وكأنه ضُرب بحجر فى وجهه ، صرخ كالمجنون :

ـ كيف تقولين هذا يا بنت عبد الراضى ؟! كيف تقلبين الموازين هكذا ؟! أحينما آخذ بثأرى ممن قتل أخى أكون خالفت شرع ربنا ؟! ومن يكون الملتزم بشرعه ؟ القاتل ؟! هذا والله كلام شياطين ، وما أنتِ إلا شيطانة ، لعنة الله عليك .

ـ بل لعنة الله عليك أنت وعلى أمثالك المتخلفين !

هكذا انطلقت القذيفة من فم الفتاة ولكنها لم تـدر بنفسـها بعدها ، فقد هوى (الثور المتخلف) على وجهها بيده الغليظة كالمطرقة لتسـقط علـى الأرض بـلا حـراك بينمـا انطلـق هـو يخب فى جلبابه كشيطان مريد .

★ ★ ★

ولم تمض أيام قليلـة إلا وشـاع فـى القريـة خبر وصـول (عليوة الدهشان) إلى مركز البوليس لانتهاء مدة عقوبته ، وأنه فى الطريق إلـى القريـة ، فخرجت الأخيرة عن بكـرة أبيها لاستقباله .. بعضهـم سـعيدًا متباهيًا بخروجـه ، والبعض الآخر لرؤية بصمة السجن وسنواته الطويلة عليه ، وفريق ثالث خرج لمجرد التهليل مع المهللين ..

وبدا الجميع فى حالة فرحـة عارمة إلا اثنين : (صالح) و (صابحة) .. (صالح) فـى مكمنـه داخل القصـب ، وقد خلع بندقيته الآلية عن كتفه ، وقبض عليها بكلتـا يديـه فـى عصبية مجنونة وتشنج ، بينما جحظت عينـاه المسديرتان كعينى شـيطان مسعور ، وهـو يرصـد الطريـق الترابى فـى تحفز طاغ وانفعال .. و(صابحة) وهى تنطلق على الطريق

مفزوعة ذاهلة لاهثة قاصدة حقول القصب وقد أوشك قلبهـا أن يتوقف من عنف دقاته ..

وظهر (عليوة الدهشـان) فـوق فرسـه الأبيض بمدخـل القرية تزفه عائلته وأنصارها بالطبل والزمـر والزغـاريد .. وازدادت بهجة الزفـة بأطفـال مدرسـة القريـة الذين تصادف خروجهم مـن المدرسـة ، فراحـوا يحلقـون حـول الموكـب ببراءتهم التى لا تعى من الأمر شيئًا سوى جو الفرحة الـذى يحبونـه ، وتهفوا إليه قلوبهم الصغيرة .. وانحـرف الموكـب بصخبه إلى الطريق الترابى مقتربًا من ديار القريـة ، فـى حين اندفعت (صـابحة) تجوس داخل غابات القصب مناديـة بكل فزعها على (صالح) بينما (صالح) مسددًا فوهة بندقيته نحـو الموكب باحثًا عن رأس عريس الزفة (ابن الدهاشنة) ..

ودوت الأعيرة النارية .

وتلاشت الزفة فى لمح البصر ، ودوى الصراخ والعويل .

وتجمدت (صابحة) فى مكانها وقد هوى قلبها من صدرها ..

وانقطعت أنفاسها ، وشـعرت أنهـا ستموت اختناقًـا بين أعواد القصب المطبقـة عليهـا ، فراحـت تجـر قدميهـا بشـق الأنفس كى تخرج إلى الطريق .. وخرجت !

وإذا بها تطلق صرخة مفزعة رجت الفضاء :

ـ نوااارااااااااه !

وقفزت فوق شقيقتها الوحيدة ابنة السبع سنوات والتى كانت تنتفض فوق التراب وسط دمائها كحمامة مذبوحة تلفظ آخر أنفاسها .. فقد مزقتها رصاصات أبغض شياطين الأرض : (صالح أبو عتمان) .

★ ★ ★

الفصل الثانى

جاهد رجال البوليس بكل قوتهم لإنقاذ (صالح) من أيدى (السمطيين) وهم يقودونه إلى سيارة الترحيلات التى ستقله إلى السجن .. اندفعوا جميعًا يريدون الفتك به ، وعندما لم تطله أيديهم انهالوا عليه بالبصق واللعنات والسباب ، وأخيرًا بالصراخ الهادر بألا يعود إلى قريتهم أبدًا حتى مماته وإلا مزقوه إربًا إربًا ..

ولكن كل ذلك الهياج والسخط كان فى وادٍ بينما الفتى فى وادٍ آخر تمامًا .. فمنذ لحظة القبض عليه ، وحتى القذف به داخل عنبره (بليمان طره) ـ محكومًا عليه بالحبس ثلاث سنوات بتهمة القتل الخطأ ـ لم يكن (صالح) واعيًا لأى شىء يحدث له أو حوله .. ظل غارقًا فى طوفان ذهوله من فعلته الشنعاء .. ذهب الشيطان اللعين الذى ظل لسنوات طويلة قابضًا على عقله وبصيرته ، وتركه يعوى فى داخله ككلب ذبيح .. لم يعد يعى أو يسمع سوى عوائه الهيستيرى بداخله : (آه ياصابحة) ـ!! آه ياحبيبة القلب !! ماذا فعلت بك ؟ أنا قتلت لك (نوارة) ؟! أنا ؟!

وراح يجحظ بعينيه المخيفتين يمينًا ويسارًا كالمجنون ،

وكأنه يحاول الهروب من رؤية شىء رهيب لا يبصره سواه .. من منظر (نوارة) وهى مكومة على الأرض معجونة بدمائها !! (نوارة) !! تلك الزهرة البريئة ، اليتيمة الأبوين ، التى تلقت رصاصات الغباء والجهل فى جسدها الصغير الطاهر بدلا من أن تتلقى حضن حنون يحتويها ويهدهدها .

وخُيّل للمساجين المقيمين فى العنبر أن زميلهم الصعيدى الجديد على وشك الجنون .. وأدهشهم أن يكون هناك صعيدى بهذا الضعف .. ولكن دهشتهم سرعان ما تلاشت بمجرد علمهم بجريمته .. وطفحت نفوسهم جميعًا بالسخط عليه والقرف منه ، ونبذوه ككلب أجرب .. ولكنه لم يكن معهم ليشعر بسخطهم أو رضاهم .. بل كان بعقله وبصره وكيانه كله هناك .. فى (السمطة) .. عند (صابحة) المذبوحة بفجيعتها .. وكلما قفز إلى مخيلته منظرها وهى تلملم أشلاء (نوارة) من فوق الأرض انتفض صارخًا فى داخله : آه (يا صابحة) !!

* * *

وتوالت الأيام عليه فى سجنه ثقيلة مُرة ، لا فرق بين ليلها ونهارها .. فهو فى فراشه ساكن جاحظ كالأموات ، وحينما

يكلفونه بأعمال السجن يتحرك صامتًا ذاهلاً كالإنسان الآلى .. وحتى فى الفُسحة ينزوى فى ركن من فناء السجن ، ويجلس مع نفسه غارقًا فى صمته وذهوله ونواحه الداخلى الذى يمزق جوفه وعقله .. ورق لحاله شاب من زملائه المساجين ، فجلس إلى جواره يحاول إخراجه مما هو فيه ، ولكنه سرعان ما تبين له أنه يحاول مع صنم : لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم .. واغتاظ السجين الشقى فراح يتفرسه بنظراته دهشة وهو يقول له :

ـ صدقنى يا بن العم .. أنا لو من ناسك كنت صببت قاعدة خرسانة فى مدخل بلدكم ووضعتك فوقها ..

وإذا بالصنم يحرك رأسه ملتفتًا نحو زميله بنظرة مرعبة ، ولكن السجين المشاكس لم تهتز له شعرة .. بل هز رأسه مؤكدًا رأيه ، ثم أضاف باسمًا :

ـ ويا سلام لو دقوا ماسورة فى دماغك كنت ...

ولم يتمها السجين المتهور ، فقد فوجئ بالصنم الغاضب ينتفض واقفًا ، فانتفض هو الآخر واقفًا متحفزًا له ، ولكنه فوجئ به ينطلق جريًا صوب هدف آخر .. صوب سجين سقط على الأرض فاقد الحراك وهو يسير فى الفناء .

* * *

انتشل (صالح) الأستاذ (سمير عبد الرحمن) من فوق الأرض ، وانطلق به يحمله فوق ذراعيه إلى عيادة السجن ، ومن هناك انطلقت سيارة الإسعاف بالصحفى السجين إلى المستشفى لإنقاذه من الأزمة القلبية التى داهمته ، بينما عاد (صالح) إلى العنبر وقد تأثر بحالة الرجل ، وبمنظره وهو ينتفض فى حضنه وقد اصطبغ وجهه بزرقة الاحتضار ، ووجد نفسه يدعو (الله) فى قلبه أن يلطف به ..

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يصاب فيها الأستاذ (سمير) بهذه الأزمة الخطيرة ، فهو لم يزل شابًا لم يتجاوز الأربعين من عمره بعد ، وبنيانه قوى .. ولكن الذى يعرفه عن قرب يدرك أن ما أصابه كان متوقعًا وليس غريبًا ، تمامًا كما كان سجنه متوقعًا من قبل أن يسجن !!

فالأستاذ - بحق - صحفى شريف ، عاهد نفسه من بداية مشواره أن يجعل من قلمه سلاحًا مشهرًا ضد الظلم والفساد ..

ولكن فاته من أول المشوار أن نُبل الهدف ، وحُسن النية وحدهما لا يكفيان الإنسان للوصول برسالته إلى بر الأمان .. وأن عدم التعقل فى الوسيلة والمسلك كفيل بأن يهوى بصاحبه من أعلى القمم ..

لقد غره أنه صار صحفيًا مرموقًا له اسمه ومكانته ،

فراح يفتح نيران مدفعيته الصحفية الثقيلة بغير تعقل ، فكان لابد من استضافته فى السجن حتى يهدأ شيطانه الثورى قليلاً .

وكانت زوجته (دعاء) أول من هرعوا إليه فى المستشفى ..

و (دعاء) حسناء متوهجة بروح العصر .. ذكاء ، وثقافة ، وإقبالاً على الحياة بشفافية وسلاسة رائعة .. وهى تحب الصحفى المشاغب بجنون .. وهما معًا نموذج رائع للزوجين العاشقين الصديقين المتفاهمين إلى أبعد مدى إلا فى نقطة واحدة .. مسلك الزوج الطائش الذى قاده إلى حافة الموت .

هرعت الفتاة إلى زوجها لتقضى بجواره ليالى عسيرة لم تذق فيها للنوم طعمًا ، ولم تجف دموعها ، ولم يرحمها خوفها عليه وهى تراه ممددًا فى فراشه موصلاً بالأجهزة ، متأرجحًا بين الحياة والموت .. وراحت المسكينة تقضى الليالى الطويلة بجواره ، وهى تبتهل إلى الله بالدموع أن يدركه برحمته ..

واستجاب لها ربها .. وأفاق زوجها الحبيب ، فأسرعت تغمره بحنانها ورعايتها حتى استرد عافيته تمامًا ، ونهض من فراشه ليضمها فى صدره فى حب وامتنان بينما هى تقبض عليه بفرحة طاغية .

وإذا بالزوج الشاب ينتبه إلى نحول زوجته وشحوب وجهها ليدرك على الفور كم جارت المحنة عليها ، وليجتاحه الخجل ، ووجد نفسه يهمس لها :

ـ آسف يا حبيبتى .. آسف على كل ما سببته لك .

ولم تجبه الفتاة بكلمات ، ولكن عينيها راحتا تمطرانه بنظرات العتاب والمرارة مما زاده خجلاً :

ـ أعلم ما يدور بخلدك الآن .

ولم تجد مفرًا من معاتبته :

وهل يكفى أن تعلم به فقط ؟ هل يغنى العلم بالمرض عن العلاج .

تحرك عناده الباطل :

ـ أنا لم أرتكب ذنبًا أحاسب عليه .

ـ هذا معناه أنك لم تفق بعد .

صفعته عبارتها :

ـ وهل أنا فى غفلة يا مدام ؟!

أجابته بشجاعة :

ـ الإنسان الذى يقود نفسه إلى السجن ، ثم إلى الموت دون مبرر بماذا يمكن وصفه إلا بالغفلة ؟

وانفجر شيطان عصبيته :

ـ وما المطلوب منى حتى أفيق من الغفلة التى ترينها حضرتك ؟ هل ألقى بقلمى وأوراقى وأبحث لى عن عمل آخر ؟ أم أنضم إلى مواكب المنافقين ، وأعطى ظهرى لمظالم الناس وأنّاتهم ؟ أم أقبع فى بيتى ويا دار ما دخلك شر ؟! أخبرينى يا زوجتى العزيزة .. أخبرينى بالمطلوب منى حتى أفيق من غفلتى المزعومة .

وأخبرته وهى مشفقة عليه من عصبيته :

ـ مطلوب الحكمة .

ـ الحكمة ؟!

ـ نعم يا أستاذى ، الحكمة .

ومضت تواجهه بمنطقها فى ثبات :

ـ من حقك أن تكون لك رسالة فى الحياة .. من حقك أن تقاوم الظلم .. من حقك أن تتصدى لأى انحراف أو فساد .. لكن ليس من حقك أبدًا تجريح الآخرين حتى لو كانوا

متهمين من وجهة نظرك .. نحن لسنا أول دعاة الإصلاح .. سبقنا من هم أعظم وأجل منا .. انظر إلى مسلكهم .. انظر إلى أنبياء الله ورسله ، وكيف تصدّوا جميعًا لأبشع جريمة إنسانية ـ الضلال والكفر ـ بالحكمة ـ والموعظة الحسنة .. أنت صحفى شريف ، والكل يعرف ذلك ويعترف بـه .. وهدفك هو الإصلاح ، ولكـن الإصـلاح يستحيل تحقيقـه إلا بالحكمة .. بالحكمة وحدها وليس بسواها يا أستاذى .

وفعلت الكلمات المخلصة مفعولها ، انكسرت صخرة العناد والجدل داخل الأستاذ وغاصت لتطفو بداخله حيرة مؤلمـة أخرجها فى كلمات صادقة :

ـ أنا لا أطيق الفساد والظلم .. رائحتهما تستفزنى .

تخنق صدرى .. تشعل النار فى أعصابى ..

ـ إذن لا تتصدى لهما من موقع القاضى ؛ لأن قابليتك للاستفزاز ستحيد بك عن طريق العدالة .. القاضى يُعرض عليه من المتهمين ما تشيب لجرائمهم الولـدان ، ومـع ذلك لا يسمح أبدًا للاستفزاز أن يقترب منه ..

ـ معنى ذلك أن أترك منبرى الذى وضعنى اللـه فوقـه ؟ أن أتخلّى عن رسالتى التى خلقت لأجلها .

أسرعت الفتاة تقاطعه :

ـ لا .. لاَ يا أستاذى .. أنا لم أقصد هذا بالمرة .. بالعكس أنا أناشدك أن تتمسك بمنبرك ، وبرسالتك ، وبدورك الذى خلقك اللّه من أجله .

ـ إذن ماذا تقصدين ؟

ـ ما قصدته هو أنه لكل هدف أكثر من طريق يؤدى إليه ، منهـا مـا يناسـبنا ومنهـا مـا لا يناسـبنا .. أنـت تريـد الإصلاح أليس كذلك ؟

ـ أنت خير من يعلم ذلك .

ـ أعلم ، وأعلم أن هدفك وهدف كل مصلح شريف هـو المجتمع ، وبتحديد أكثر الناس البسطاء الذين هم فى أمس الحاجة إلى يد مخلصة تمتد إليهم لتأخذ بأيديهم ..

ـ يعلم اللّه كم هم شغلى الشاغل ، وكم أريد أن أفعل لأجلهم أى شىء .

إذن دعك من عراك أهل الكراسى والمناصب ، وانزل لهؤلاء الناس الذين تحبهم ويحتاجون لك .

ـ أنا أحاول مساعدتهم من موقعى .

ـ الأنبل أن تساعدهم وأنت بينهم .

ـ وماذا أستطيع أن أقدم لهم وأنا بينهم ؟

ـ انزل إليهم أولاً وستكتشف أنه بمقدورك أن تقدم لهم الكثير ، وأنهم محتاجون لك ولأمثالك فى الكثير .

ودنت منه الفتاة الرائعة ، ووضعت نفسها فى حضنه هامسة فى إخلاص :

ـ حبيبى .. أحبك .. أحبك ولا أريد أن أفقدك .. الطريق الذى أوصلك للسجن والمرض لا يستحق أن تتمسك به .. لا تتخل عن هدفك ، ولكن أحسن اختيار الطريق إليه ..

وإذا بالزوج الحبيب يضمها فى صدره بحب جارف ، وهو يشعر بسكينة عجيبة تغشاه ، فقط تساقطت كلماتها الصادقة المخلصة على قلبه وبصيرته كقطرات ماء شافٍ راحت تغسلهما من غبار العناد والطيش .. ووجد نفسه يشعر بأنوار بيضاء تسطع بداخله كاشفة عن براح جميل فى وجدانه .. ووجد نفسه يناجى ربه فى إخلاص :

ـ إلهى : أين السبيل إلى غايتى التى خلقتنى لأجلها ؟

أين يا إلهى ؟

★ ★ ★

الفصل الثالث

عاد الأستاذ (سمير) إلى السجن معافًا .. واستقبلته إدارة السجن والمساجين فرحين بشفائه .. فقد كان الرجل بمكانته ، وثقافته ، وسلوكه الراقى موضع حب واحترام الجميع ! حتى أنهم كثيرًا ماكانوا يندهشون لوجود إنسان مثله بينهم فى السجن ..

وكان (صالح) ضمن مهنئيه ، ولكنه كان يفوقهم فرحة بنجاته ، فقد كان أقربهم إليه عند سقوطه ، وظل يخامره إحساس مؤلم بأن الموت لن يفلته ؛ لذلك كانت فرحته طاغية وهو يهنئه ، وحينما علم الأستاذ بأن هذا الشاب هو الذى انتشله من فوق الأرض ، وجرى به فى حضنه إلى العيادة ، وحينما قرأ مشاعره الطيبة على وجهه ؛ وجد نفسه يضمه إلى صدره شاكرًا ممتنًا ..

والتقى النقيضان !!!

الصعيدى الجاهل المنزوح من قاع بئر الجهل والتخلف .

والثائر المثقف الذى هوى من عليائه بحماقته وتهوره ..

وراحت لقاءات الاثنين تتزايد ، وراحت أواصر الود تزداد

بينهما يومًا بعد يوم .. وبحظوة الأستاذ (سمير) لدى الإدارة تم إعفاء (صالح) من أعمال السجن لتطول جلساتهما معًا .. وبفطرية خالصة وصدق راح الصعيدى البائس يفرغ حمولة صدره على مسامع الأستاذ ..

روى له حكايته كلها ، وحكى له كثيرًا عن حبه لـ(صابحة) ، وحسرته على ضياعها منه .. وتأثر الأستاذ كثيرًا بقدر هذا البائس الذى كُتِبَ عليه أن يحصد ثمار جهل وتخلف لاذنب له فيهما ..

ولكنه لم يكن يملك ما يواسيه به ..

لقد كان هو نفسه فى حاجة إلى من يخفف عنه محنته ..

وراح يتذكر زوجته الحبيبة وكلماتها الحنون المخلصة .. وراح يعاود تضرعه إلى الله أن ينير له الطريق ، وأن يضع حدًا لمعاناته .

وفجأة سكنت كل حواس الأستاذ ، وكأنه ينصت إلى صوت بداخله .. ثم إذا به يهتف محمومًا :

ـ (صالح) !! (صالح) ومجتمعه !! هؤلاء المساكين الذين يلتهمهم سعير الجهل والتخلف .. هؤلاء جزء حميم منّا ..

كيف أغفلناهم ؟ أين كانوا من عينى وبصيرتى ؟ يالخسارة المرء حين تعمى بصيرته ويضل الطريق ..

ومن هذه اللحظة انطلق الأستاذ يدور فى فلك اكتشافه .. ثلاثة أيام مضت عليه وهو صامت شارد .. لم يكن ما يفكر فيه بالأمر الهين .. لقد رمته الأقدار بـ(صالح) ، ثم إذا بفكرة عجيبة تقفز إلى عقله .. فكرة أقرب الخيال منها إلى الواقع .. ولو أنه طرحها على أحد لاتهمه فورًا بالشطط ..

ومع ذلك وجدها تتمدد بداخله حتى طوقته تمامًا ، ولم يعد أمامه إلا سؤال واحد : كيف الطريق إلى تنفيذها ؟

وهاهو اليوم الرابع يشرق عليه وهو مازال واقفًا أمام سؤاله مستحضرًا كل خبراته وعلمه لمحاولة الوصول إلى إجابة عملية قابلة للتطبيق .

وأخيرًا قبض عليها .

وفى هذه اللحظة كان (صالح) يسير بجوار الأستاذ متحيرًا فى شروده الذى طال ..

وإذا بالأستاذ يتوقف ويتأمله مليًا وكأنه يحاول قياس قدرته على استيعاب ما سيطرحه عليه ..

وذُهش (صالح) لحال الأستاذ ، وسأله :

ـ خير يا أستاذ (سمير) .

وإذا بالأستاذ يسأله بهدوء دون أن يرفع عيناه عنه :

ـ (صالح) ماذا تريد من الدنيا ؟

ازدادت دهشة الصعيدى الشاب :

ـ ماذا هناك يا أستاذ ؟

ـ أجبنى يا (صالح) من فضلك : ماذا تريد من الدنيا ؟

وفوجئ (صالح) بجدية الأستاذ فى سؤاله وإصراره ، فأجابه ، ولكن بمرارة طاغية :

ـ وهل ما زالت هناك دنيا ؟

ـ الدنيا لا تنتهى بكبوة يا (صالح) .

ـ يا أستاذ .. يا أستاذ لكل إنسان دنياه .. ودنياى ضربها الخراب .. ضاعت .

ـ وماذا كانت دنياك هذه التى ضاعت .

شرد الفتى البائس فى حسرة :

ـ دنياى كانت (صابحة) التى كنت أعيش بحبها .. و (نوارة) التى كانت فى محل ابنتى .. وقريتى التى ولدت وكبرت فيها ولا أعرف سواها .. دنياى كانت هذه الثلاث .. والثلاث ضاعت .

ونكس (صالح) وجهه نحو الأرض وكأنه يخشى أن تخونه دموعه ، ولأول مرة يدرك الأستاذ حجم عذابه ، فانبثق فى قلبه عطف جارف عليه ، ومد يده يرفع وجهه المنكس فى حنان ، وسأله :

والذى يعيد لك كل هذا يا (صالح) ؟

ـ يعيد ماذا يا أستاذ ؟

ـ دنياك كلها .

ـ دنياى كلها ؟! تعيد (صابحة) التى ذبحتها وسودت أيامها ؟ أم (نوارة) الراقدة الآن فى قبرها ؟ أم قريتى التى خرجت منها مطرودًا مثل الكلاب ؟

وأسقط فى يد الأستاذ .. فالأمر حقًا يبدو ضربًا من ضروب المستحيل فى نظر أى إنسان سوى ، فماذا سيكون فى نظر واحد مثل (صالح) ؟

وراح يتأمل الفتى المحطم للحظات متحيرًا فى كيفية اختراق أسوار اليأس المطبقة عليه ، وأخيرًا تراءى له سبيلاً آخر فأسرع يسلكه :

- (صالح) ما ظنك بى ؟

- وهل هذا سؤال يا أستاذ ؟ حضرتك أكبر كثيرًا من ظن أمثالى .. يكفى أنك إنسان شريف حر ، ووجودك هنا أكبر دليل على ذلك .

- وهل للإنسان الحر أن يكذب أو يضل ؟

- حاشا لله يا أستاذ ، كيف تقول هذا على نفسك ؟

- أفهم من ذلك أنك تثق بى وبأى شىء أعدك به ؟

- طبعًا يا أستاذ أثق بك أكثر من نفسى .

- وإذا وعدتك بأن أعيد لك كل ما ضاع منك .

- ثانى يا أستاذ ؟!

- أخبرتنى أنك ستثق بوعودى .

- المشكلة ليست فى الثقة يا أستاذ ، المشكلة فى العقل الذى يتقبله ويصدقه .

- عندك حق يا (صالح) .. عندك كل الحق يا (صالح) ..

الأمر يبدو مستحيلا ، ومع ذلك أعدك به ، وأقسم لك بشرفى عليه .

بهت الفتى :

- معقول يا أستاذ ؟!

- نعم يا (صالح) ألا تثق بهذا القسم أيضًا ؟

- حاشا لله يا أستاذ ، قسمك هذا بالدنيا وما فيها .

قالها (صالح) ولكنه وجد نفسه يغرق فى طوفان من الدهشة والحيرة ، ووجد نفسه يلتفت إلى الأستاذ مرددًا بحيرته العاصفة :

- معقول ؟! (صابحة) و (نوارة) ، والقرية ؟

ووجد الأستاذ يجيبه مطمئنًا واثقًا :

- بشرط .

- ماهو ؟

- أن تمضى معى فى مشوار لاتكل من طوله ، ولاتخالفنى فيه .

وفوجئ الفتى ، وراح يتطلع إلى الأستاذ فى حيرة وحرج ..

كيف يمنحه موافقته على أمر لايعلمه .. وربما كان فوق طاقته ..

وقرأ الأستاذ مايدور بعقله البسيط ، فأسرع يقول له :

ـ ستعرف كل شىء فى حينه يا (صالح) ، ولكن الذى يهمك أن تعلمه الآن أنه مشوار عظيم كله خير .. وكل ما عليك أن تمنحنى ثقتك ولن تندم .

ـ مثلك لايأتى من ورائه ندم يا أستاذ .. اعتبرنى ملكك .

ـ قالها الصعيدى الشاب بصدق ونية خالصة جعلت الأستاذ يضمه فى حضنه ..

★ ★ ★

فرح الأستاذ كثيرًا عندما علم أن (صالح) يحفظ القرآن الكريم كله .. وعلم منه أن مرجع ذلك هو انتشار المساجد فى قريته .. وفوجئ أيضًا بأنه يقرأ ويكتب بخط جميل ، ولم يملك الأستاذ إلا أن يهتف به فى فرحة طاغية :

ـ وفرت على مسافة كبيرة يا أجمل صعيدى فى مصر .

ابتسم (صالح) مداعبًا :

ـ لو سمعوك ناسى وحضرتك بتقول (أجمل صعيدى) هذه (لطخوك) عيارين مخدومين .

وضحك الأستاذ كثيرًا .. وجلس وأجلسه إليه ، وتأمله بنظرة طويلة حانية قبل أن يقول :

ـ فلنبدأ مشوارنا يا (صالح) .

وإذا به يخرج مصحفًا صغيرًا من جيبه ، ثم يضيف :

والبداية بهذا .

ودهش (صالح) :

ـ المصحف الشريف ؟!

ـ نعم .

ـ ولكنى أحفظه كله يا أستاذ .

ـ هناك ماهو أهم من حفظه يا (صالح) .

وفتح الأستاذ (المصحف الشريف) .. وراح يبدأ فى تفسير آياته فى جلسات طوية ممتدة يوميًا ..

ولم يكن هدف الأستاذ هو التفسير فى حد ذاته .. بل كان له هدف أبعد كثيرًا من هذا .. كان هدفه الحقيقى هو تلك

الكنوز الرائعة من شتى العلوم والمعارف القابعة فى بطون الآيات الكريمة .. ولم يكن الأستاذ فى تفسيره يعتمد على أن هذا الكتاب العظيم مجرد منهاج حياة ، أو باقة قصص للعبرة ، أو لائحة أوامر ونواهٍ للاستقامة .. لم يحصر نفسه بين طريقى الخير والشر ونهايتيهما الحتميتين بالثواب والعقاب ..

بل مضى بتلميذه فى طريق آخر تمامًا .. طريق تصطف على جانبيه أبواب موصدة على كنوز هائلة من العلوم والأسرار والإعجاز .. وراح يفتحها بتبسيط عجيب ، وأسلوب شيق أخذ بلب تلميذه .. توقف به أمام عبقرية الخالق الأعظم فى بناء الكون ، وإدارته بكل هذا الانضباط والدقة عبر ملايين السنين دون أدنى خلل أو ارتباك !

وتوقف به أمام عبقريته ـ سبحانه وتعالى ـ فى خلق الإنسان ، وكيف ينشئه خطوة بعد خطوة ، وكيف يزوده بهذا الكم الهائل من الأجهزة الدقيقة التى يعد كل منها معجزة قائمة بذاتها ، وكيف يحسن صورته وكيف يمنحه الحياة !!

وأخيرًا مضى يفتح أمامه كنوز البلاغة فى آيات اللّه ، ومنها راح يعلمه كيف يحسن التأمل ، وكيف يفكر ويتدبر ، وكيف يحسن البيان .

فيوض وفيوض من النور والعلم راحت تصب فى عقل (صالح) مكتسحة أمامها كل أفكار الجهل والتخلف التى ظلت تعشش فى عقله المعتم كحشرات وزواحف مقززة منذ وعيه بالحياة ..

وبلغ الأستاذ بتلميذه نهاية الكتاب الكريم فى أقل من ستة شهور ليجد صالح نفسه يرفع عينيه إلى السماء ، ويديرهما فى الفضاء ، وكأنه يرى الكون والحياة لأول مرة .. وكأنه لم يولد إلا توًا .. وعاد ببصره إلى الأستاذ ، وراح يتطلع إليه بنظرات مختنقة بالكثير الذى يريد الإفصاح عنه ولا تطاوعه الكلمات فيه ، ولكن طاوعته دموعه وأفصحت فكانت خير بيان على حسرته وكمده مما فعل به الجهل ، وما ضيعه منه ، العمر والحبيبة (صابحة) .. وانطلقت من قلبه آهة فظيعة تقطر ندمًا وحزنًا وكمدًا على الحبيبة البعيدة .. وبدا قلبه كبحيرة من الدموع الساخنة يطفو على صفحتها وجه الحبيبة مصبوغًا بالحزن والكمد ، وإذا بصرخته المكتومة تمزق قلبه وجوفه :

آاااه (ياصابحة) . ومد الأستاذ يده يمسح دموع الفتى ، وقد روعه هذا العذاب الجبار الهادر فى عينيه ، ولم يدر لماذا تذكر الآن بالتحديد أن هذا الشاب كان أول من أسرع إليه فى محنته ، واحتواه بحب صادق فى حضنه .. ووجد نفسه يعيد وعده على مسامعه :

ـ كل ما ضاع سيعود يا (صالح) .

وتطلع إليه (صالح) بدموعه ويأسه وعذابه ، وهو يقول :

ـ إنه المستحيل بعينه يا أستاذ .

ـ قد يكون مستحيلاً ، ولكنى وعدتك به .

ولم يعلق الفتى المعذب .. منعه الأدب من مصارحة أستاذه باستعداده لأن يصدقه فى أى شىء يعده به إلا هذه .. لم يستطع أن ينطقها صراحة ، ولكن الأستاذ قرأها جلية على وجهه .

وجاء أحد الحراس يبلغ الأستاذ بزيارة خاصة له ، فمضى مع الحارس ، بينما جلس (صالح) فى مكانه متطلعًا إلى السماء أن تدركه برحمتها .. وإذا بآذان العصر يرتفع فيخشع قلبه وبصره ، وينهض قاصدًا المسجد .

★ ★ ★

الفصل الرابع

قضى (صالح) ليلته يفكر فيما يفعله معه الأستاذ ، وفى مقصده مما يفعل ، وفى وعوده له بتحقيق المستحيل الذى لا يدخل عقلاً .. وفى النهاية بدا الأمر للفتى عصيًا على الفهم والتصديق ، ولكنه لم يسمح لنفسه أن يشك فى مصداقية الرجل .. فمثله لا يمكن أن ينطق إلا بما يعنيه .. ولكن كيف ؟

كيف ؟

وطلع النهار على المسكين وهو يسبح فى خبرته ، وإذا به يفاجأ بالأستاذ يمد له يده بكتاب أنيق ، تناوله منه مندهشًا ، وقرأ عنوانه بصوت مسموع :

ـ العجوز والبحر ؟

ـ رواية حلوة يا (صالح) .

عاد (صالح) يتأمل الغلاف وهو يقول مداعبًا الأستاذ :

ـ العجوز .. والبحر .. عندنا فى الصعيد عواجيز وبحور ياما .

ابتسم الأستاذ ، ثم سأله :

- تعرف تقرؤها يا (صالح) .

أجابه الصعيدى المشاكس باسمًا :

- من قرأ القرآن يقرأ عمدة الكتب يا أستاذ .

- إذن اقرأها يا أجمل صعيدى .

واستدار الأستاذ منصرفًا ، بينما راح (صالح) يقلب الكتاب بين يديه وهو يتساءل باسمًا :

(ما الحكاية يا أستاذ) ؟!

وعاد الفتى إلى عنبره بالكتاب ، ولم يره الأستاذ إلا فى اليوم الثالث .. فوجئ به يقف أمامه يعيد إليه روايته ، ويتأمله بنظرة طويلة أدرك منها الأستاذ على الفور أن تلميذه تعثر فى التجربة ، فأسرع يخفف عنه فى حنو :

- لا عليك يا (صالح) ، إنها رواية صعبة . وإذا بصالح يبتسم ، ثم يقول فى وقار :

- القوة والحكمة .

هتف الأستاذ مذهولاً :

- (صالح) ؟!

- (القوة والحكمة) قطبى الحياة يا أستاذ ، أليست هذه هى خلاصة الرواية ؟

ولم يتمالك الأستاذ نفسه .. اختطف (صالح) فى حضنه ، وراح يدور به فى الهواء ، وهو يكاد يصرخ فرحًا بنباهة تلميذه .

★ ★ ★

وانطلق الأستاذ يضع بين يدى تلميذه قطوف مختارة بعناية من الآداب والفنون .. وراح يناقشه فيما يقرأ ، ويبسط له ما يستعصى عليه فهمه .

ثم إذا به يبدأ فى تعليمه حروف اللغة الإنجليزية ، ليجد الفتى الصعيدى نفسه فى أقل من أربعة شهور يقرأ ويكتب عدد كبير من الكلمات ، ويلم بكل قواعد اللغة .

ثم إذا بالأستاذ يأتيه مرة أخرى برواية (العجوز والبحر) ولكن .. باللغة الإنجليزية !! وقرأ التلميذ على الفور نية إستاذه ، وأسرع يسأله مندهشًا :

- معقول يا أستاذ ؟!

وأجابه الأستاذ فى حنو وبشاشة :

- سنقرؤها سويًا يا (صالح) .

- بالإنجليزية ؟!

- بالإنجليزية .

ولم يضيّعا وقتهما .. وجلسان يقرآن الرواية معًا .. ولم تستغرق منهما أكثر من شهرين .. ووجد الصعيدى الشاب نفسه يضع الرواية أمامه فوق طاولة بوفيه السجن ، ويقف أمامها مبهوتًا ، يحدق فيها وهو يضرب كفًا بكف غير مصدقٍ نفسه .. ودهش الأستاذ لحال تلميذه ، وأسرع يسأله :

- ماذا جرى يا (صالح) ؟

والتفت (صالح) بذهوله إلى الأستاذ :

- إيه يا أستاذ ؟! ألا تعرف حضرتك ماذا جرى ؟ إذن اسمعنى وأنت تعرف .

وراح يدور حول نفسه وهو يهتف بانفعال ، وكأنه أصيب بمس من الجنون .

- أنا (صالح أبو عتمان) .. ابن (السمطة) .. ملك الجهل والتخلف بلا منازع .. أبو رأس محشو بطين الجهل وصراصيره وكل مصائبه .. أنا الجاهل ابن الجاهل .. أنا (صالح أبو عتمان) أقرأ لعباقرة العالم ، وبلغاتهم .. ماذا جرى فى الدنيا ؟! ماذا جرى ؟!

وإذا بالأستاذ يجيبه بهدوء :

- لم يجر شىء يستحق دهشتك هذه يا (صالح) .. كل ما فى الأمر أن المعادلة كانت مختلة وعادت لطبيعتها .. جهلك الذى مضى كان خللاً فى المعادلة لا أكثر .

وراح يتأمل تلميذه بفرحة واعتزاز وهو يقول :

- يا فتى : أنت الآن الإنسان الذى آراده الله فى الأرض .. الله خلقك ، وخلق العلم لأجلك كإنسان .. وحرمانك منه كان خللاً فى المعادلة .. أنت لم تأخذ أكثر من حقك .. ولا فضل لأحد عليك فيما أخذت غير الله ..

وسكنت جوارح الفتى الهائج ، وراح يتطلع إلى معلمه العظيم فى إكبار عاجزًا عن الإمساك بكلمة الشكر التى تليق به وبصنيعه ، ولم يجد سوى سؤال بسيط ولكنه يقطر إخلاصًا :

- كيف أوفيك حقك يا أستاذى ؟

- بالتزامك بالعهد الذى بيننا .

أنا ملك يمينك .

ومضى الرجلان معًا يزفهما طائر الحب والإخلاص .

★ ★ ★

وجاء اليوم الذى كان يخشاه (صالح) .

غادر الأستاذ السجن لانقضاء مدة عقوبته .. ولكن قبل أن يخرج وقف أمامه تلميذه النجيب يتأمله بنظرات عزت عليها الدموع ، ولكنها أفصحت عن طوفان هادر من مشاعر شتى جاشت بداخله ، فرحته الصادقة بانتهاء محنة معلمه العظيم ، يزاحمها إحساس عاتى بالحزن على فراقه ، وأخيرًا غمه على طريق الميلاد الجديد الذى لم يكتمل ..

وقرأ الأستاذ كل هذا فى عينى تلميذه ، فأخذه بين يديه ، واحتواه بنظرة حانية ، وهو يقول :

ـ لن يتغير شىء يا (صالح) .. لن نفترق ، ستجدنى هنا عندك أكثر مما تتوقع ، ومشوارنا معًا لن يتوقف ، ووعودى لك دين فى عنقى بما فينا (صابحة) ذاتها .. هل ما زلت تثق بى ؟

ـ أكثر من نفسى يا أستاذى .

ـ لم يتبق لك هنا سوى أربعة شهور .

ـ ما أطولها بدونك يا أعز الناس .

ـ لن تشعر بها لأنى سأكون معك .

ورفع الأستاذ كتابًا ضخمًا من فوق طاولة البوفيه ، وناوله لتلميذه ، فأخذه وهو يتساءل مندهشًا :

ـ ماهذا العملاق ؟!

موسوعة مبسطة فى العلوم والآداب والفنون ..

الواجب المقرر عليك فى الأربعة أشهر الباقية لك هنا .

ـ ستوحشنى يا أعظم معلم .

ـ وأنت أكثر يا أجمل صعيدى .

واندفع الصديقان العجيبان يتعانقان عناقًا طويلا حارًا ، تصاعدت فيه دقات القلوب حتى كادت تصرخ رافضة الفراق ..

وأخيرًا مضى الأستاذ مغادرًا السجن ، بينما عاد الفتى الممزق إلى عنبره باكى القلب ، وتهالك فوق فراشه يحدق فى السقف ، وقد تراصت أمام عينيه صورة (صابحة) الحزينة ، مع صورة (نوارة) الشهيدة ، مع صورة الأستاذ الذى فارقه ، مع صورة أهله ، وأهل القرية جميعًا وهم يشيعونه باللعنات والوعيد والسخط : جحيم .. جحيم جعله يسرع بإغلاق عينيه فزعًا وفرارًا منه .

★ ★ ★

الفصل الخامس

ومضت الأربعة أشهر ، لم تنقطع خلالها زيارات الاستاذ المنتظمة لتلميذه ماضيًا معه فى خطته التى لا يعلمها ولا يعلم نهايتها سواه .. وكانت المحصلة ثمان روايات باللغتين العربية والإنجليزية .. بخلاف الموسوعة الضخمة .

وحل يوم خروج التلميذ النجيب ..

وفوجئ بمعلمه الحبيب يأتيه بثياب صعيدية كاملة جديدة !! ووجد نفسه يركب سيارة الأستاذ الفخمة ، والأستاذ ينطلق بها حتى دخلا حى (مدينة نصر) ..

كان الوقت غروبًا والسماء فضية صافية ، والجو ربيعى لطيف ، وشوارع المدينة الشابة متأنقة بنظافتها ، وبالمحلات الشيك المصطفة على جوانبها ، والسيارات الحديثة المنطلقة فيها ، والحسناوات الأنيقات المعطرات المنطلقات فى الشوارع كأعواد ورد فاتنة .. دنيا جميلة أخذت بعينى الفتى وفؤاده وهو يطالعها كالمسحور ..

ووصل الأستاذ بضيفه إلى مسكنه .. وكان يقيم فى عمارته التى ورثها عن والده بشارع (عباس العقاد) ..

وكانت شقته بالطابق العاشر .. وكانت زوجته الشابة فى انتظارهما وقد أخذتها اللهفة على رؤية ضيفهما العجيب ، ومبعوث الرحمة الإلهية الذى أخمد شياط طباع زوجها الحبيب ، ونزع أشواكه ، وأهداه صراطًا مستقيمًا آمنًا إلى غايته المنشودة فى الحياة ، الذى فعل كل ذلك دون أن يدرى ..

ووصل الضيف المنتظر ..

وفوجئت به الزوجة الحسناء على غير ما تخيلته تمامًا ..

فكونه (صعيديًا) كانت قد ارتسمت له فى مخيلتها صورة جهمة من كل جوانبها .. ولكنها فوجئت به شابًا يافعًا ، نحيلاً ، وسيم الوجه ، رقيق الملامح ، تطل من عينيه نظرات رقيقة حالمة رغم الحزن الهادر فيهما ..

ووجدت نفسها ترحب به فى فرحة وحميمية :

ـ حمدا لله على السلامة يا (صالح) .

ـ الله يسلمك يا هانم .

ـ اسمى مدام (دعاء) ، ومسموح لك أن تناديني بـ(دودى) ، ومن الآن نحن أصدقاء !

أخذ الفتى الصعيدى بهذه اللهجة الحميمة من أول حسناء يلتقى بها فى عمره .. والتفت بدهشته إلى الأستاذ ، فإذا به يداعبه مستسلمًا :

ـ أرزاق يا صديقى الصعيدى .

وقادت الخادمة الشابة الضيف إلى الحمام ، ثم إلى قاعة الطعام حيث جلس مع مضيفيه إلى المائدة الضخمة وقد ازدحمت بعشاء يعكس بجلاء كرم وحفاوة أهل البيت بضيفهما العزيز عليهما .. ولكن الضيف بدا مأخوذًا عنهما بأمرٍ ما يأخذ بعناقه .. بذلك السؤال المنتصب بداخله منذ خروجه من بوابة السجن فى يد الأستاذ « وماذا بعد ؟ » .. إنه لا يملك نقودًا ، ولا مأوى ، والعودة إلى القرية مستحيلة بقرار أهلها ، ولا أحد فى القاهرة سيفتح له بابه .. «ما العمل إذن ؟ » .. وظل السؤال القاسى منتصبًا بداخله كعمود خرسانى محشور فى صدره حتى وهو يمضى مع مضيفيه إلى خارج الشقة بعد العشاء .. وإذا بهما يقودانه إلى شقة ملاصقة لشقتهما .. وإذا بالأستاذ يقول له وهم يقفون فيها :

ـ هذه شقة بابا وماما الله يرحمهما ، وهى مأواى وملاذى عندما أغضب على هذه المدام .

وابتسم (صالح) والتلفت إلى المدام قائلاً :

ـ (فينوس) لا يغضب عليها أحد ، هى التى بيدها الغضب والرضا .

وشهقت المدام الجميلة المبهورة :

ـ هه .

وابتسم الأستاذ وقد أسقط فى يده :

ـ هذا ما كان ينقصنى .

وأكملت عليه زوجته الشقية :

ـ إذن احذر يا زوجى العزيز ، من الآن فصاعدًا معى قوة ضاربة .

والتفت إلى (صالح) :

ـ هيا يا نصيرى الجديد لترى بقية شقتك .

وبُهت الفتى :

ـ شقتى ؟!

وأجابه الأستاذ بلهجته الرزينة الحانية :

ـ نعم شفتك .. وقد قررنا أنا وهذه المدام الجميلة منحـك راتبًا شهريًا قدره « ألف جنيه » .

كاد الذهول يطيح بصواب الفتى :

ـ ماذا ؟!

وتدخلت (دودى) :

ـ أنت يا (صـالح) من الآن موظف ، وهذا راتبك عن وظيفتك .

ـ وظيفتى ؟! أية وظيفـة هذه يا هانم ؟! وما الذى أعرفـه أنا ويمكننى عمله حتى أحصل على راتب كهذا ؟

وتدخل الأستاذ :

ـ ما الأمر يا (صالح) ؟ يبدو أنك نسيت .

ـ نسيت ماذا يا سيدى ؟

ـ نسيت اتفاقنا .. ألم نتفق على المضى فى مشوار معًا ؟

وما علاقة ذلك بما تعرضانه علىَّ الآن ؟

ـ ما نعرضه لم يخرج عن اتفاقنا يا فتى ؟

ـ كيف ؟

كيف هذه ، اتركها لنـا ، وليتك تكف عن الجدل أيها الفتـى الحجرى .

ولكن كيف للفتـى أن يكف أمـام عطايـا لا يصدقها عقل تنهال عليه دون مقابل يـراه ؟ والتفـت إلى الزوجة الفاتنـة بحيرته فلم يجد منها سوى ابتسامتها التـى تذيبـه ، فأسـرع يفر منها إلى الأستاذ يتفرسه ويسأله :

ـ أستاذى : هل لى بسؤالٍ واحد ؟

ـ تفضل .

هل حينما يمضى رفيقان فى طريق هل يكونِ مقبولاً أن يظل أحدهما يعطى للآخر دون أن يأخذ منه شيئًا ؟

ابتسم الأستاذ ابتسامته الهادئة الحنون ، وتبادل مع زوجتـه نظرة ذات مغزى ، ثم أجاب الفتى :

ـ ومن أدراك بأنى لم آخذ من رفيقى ؟

ـ أخذت ماذا يا سيدى ؟

ـ أخذت الكثير يا (صالح) ، وثق أنى آخذ منك بقدر ما أعطيك .

ولم يملك الفتى إلا أن يهتف مبتسمًا فى دهشة :

ـ يا لها من فزورة !

وأجابه الأستاذ فى هدوء :

ـ ستحلها لك الأيام .. ولكن ما عليك أن تعلمه الآن أن مشوارنا ما زال طويلاً ، ويحتاج منا إلى الكثير ، فأعنا عليه بعقلك وقلبك إن كنت تحبنا وتثق بنا .

وهتف الفتى فى تأثر :

ـ أنا كلى لكما يا أستاذى .

وهتفت (دودى) فى سعادة :

ـ إذن هيا نريك شقتك يا صديقنا العزيز .

★ ★ ★

وألقى (صالح) بجسده المكدود فى الفراش الوثير فى أول ليلة له بعد ليالى السجن ، فإذا بأنين القلب الحزين يدفع بالنوم بعيدًا عن جفونه ، وإذا بكل عذاباته تنتفض بداخله كأفاعى شرهة إستباحت القلب والخاطر ..

فها هو (ضيفٌ) على ناس غرباء لا يعرف إلى أين يمضون به ، وإلى متى سيتحملونه ، وها هو مقطوعٌ من الأهل ، منبوذٌ منهم ، محرمة عليه قريته الحبيبة التى لا تقبل رئتاه إلا هوائها ، ولا تكتحل عيناه إلا بخضرتها ، ولا يشعر

بحياة إلا بين أهلها وديارها ودروبها .. حتى حبيبة القلب ما أبعدها الآن .. ما أبعد قلبها عنه ..

ذاك القلب الذى كان يمتلئ حبًا وسعادة ، وآمالاً خضراء كخضرة خمائل القمح فى قريتهما .. ها هو ذاك يغلى بكراهيته والسخط عليه .. وها هو الفتى التعس بلا وطن ، بلا أهل ، بلا حبيبة .. ما أقسى عذاب الإنسان حين يتم نفيه من الحياة قبل أن يدخل قبره .

ومضى الليل على الفتى طويلاً باردًا موحشًا .. لا شىء فيه سوى أنين القلب ، ووجه (صابحة) الدامع ، وذلك المستحيل العجيب الذى وعده به الأستاذ : « عودة كل ما ضاع حتى صابحة ذاتها » !!

ومضت الليلة بقسوتها ، ووجد (صالح) نفسه فى صحبة الأستاذ وزوجته يجوبان به العاصمة الساحرة ..

وقفا معه أمام مومياء (رمسيس الثانى) فى المتحف المصرى ، وقدمه له الأستاذ قائلاً :

ـ هذا هو أحد أجدادك عظماء الأرض والتاريخ .. جاهد كى يرد الجميل للأرض التى أنبتته فكان عظيمًا .

ونظر إليه الفتى متفهمًا الرسالة ..

وفى باحة مسجد (الحسين) تساقطت دموعه على الأرض وهو يسجد بين يدى ربه .. وحين فرغ من صلاته وجد الأستاذ بجواره يقول له باطمئنان عجيب : « كل ما ضاع سيعود بإذن الله يا (صالح) » !!

ومن (الحسين) إلى القلعة ، إلى الأهرامات وأبى الهول ، إلى برج القاهرة ، إلى جلسه جميلة فى نادى الجزيرة .

واختتم الزوجان جولتهما بضيفهما بجولة أخرى بين مكتبات وسط المدينة ليعودوا إلى المنزل بكوم ضخم من روائع الكتب ..

وفى المنزل كانت المفاجأة التى ضحك لها ابن الصعيد كثيرًا .. أجلسته (دودى) أمام الكمبيوتر ، وشرعت فى تلقينه أول درس فى التعامل معه بينما الفتى يضحك من الدهشة :

- كمبيوتر مرة واحدة يا (دودى) هانم ؟!

ولكنه سرعان ما عاد إلى جديته ، وقال لها باعتزاز :

- من حقنا يا سيدتى ، أن نفخر بأننا فى بلدنا سبقناكم فى البرمجة .

- وذُهشت الفتاة :

- برمجتم ماذا ؟

- الحمير .. كل حمير بلدنا كمبيوترات متحركة !

وانفجرت الفتاة ضاحكة حتى سقطت رأسها أمامها ..

وبدأ الدرس .

وصار يوم (صالح) موزعًا بين دروس الكمبيوتر ، وقراءة الكتب التى يقررها الأستاذ ، وأمسيات المناقشة والتحاور بينه وبين الأستاذ ..

وزوجته ..

وفى نهاية الشهر فوجئ الفتى بنفسه يجلس فى شقة الأستاذ بين كوكبة من أقطاب العلم والأدب والفن ، وقد راحوا جميعًا يتبارون فى طرح أجمل ما جادت به قرائحهم .. وفوجئ بنفسه ينهل من رحيق لم يخطر ببال : رحيق الفكر الطازج .. وفوجئ أكثر باهتمام الأستاذ وزوجته به فى صالونهما الثقافى ، وحرصهما على إظهاره بمظهر كريم وسط هذه النخبة العظيمة .. ووجد نفسه بعد انصراف الضيوف يقف أمام الأستاذ وزوجته يعانقهما بنظراته مشدوهًا :

- أتدريان كم أحبكما ؟

واحتواه الأستاذ بابتسامته الحانية :

- ما رأيك فى فنجان قهوة على صوت (ثومة) ؟

وقالت (دودى) :

ـ سأعده لكما بنفسى :

ووضع الأستاذ ذراعه فى ذراع (تلميذه) متجهًا به نحو غرفة المكتب .. وتعجب الفتى :

ـ أى فرق بين ليلتنا هذه وليالى السجن يا أستاذى ؟!

ـ هذه هى الحياة يا فتى : مربع شطرنج أسود ومربع أبيض .

وجلس (صالح) أمام مكتب الأستاذ ، بينما أدار الأخير رائعة (ثومة) : « أقبل الليل » .. ثم التفت إلى (صالح) :

ـ أنت نجم الندوة القادمة يا فتى .

فوجئ (صالح) :

ـ أنا ؟!

ـ نعم أنت .

ـ وماذا أكون أنا أمام هؤلاء العمالقة ؟ وماذا عندى لأقدمه لهم ؟

سحب الأستاذ كتابًا صغيرًا من المكتبة :

ـ سيكون عندك شىء قيّم وجديد عليهم .

وجلس الأستاذ خلف مكتبه ، وأردف :

ـ دراسة صغيرة عن عادات وتقاليد الصعيد ، ووجهة نظرك فيها .

وإذا بالفتى يهتف مشدوهًا :

ـ (الله) عليك يا أستاذ ! من غيرى يستطيع أن يكتب فى هذا الموضوع ؟!

وناوله الأستاذ الكتاب الصغير :

ـ ابدأ بهذه : « منكرة فى كيفية إعداد الدراسات والأبحاث » ..

★ ★ ★

وشرع (صالح) على الفور فى إعداد دراسته ، وبدا وهو يعمل فيها وكأنه وجد نفسه وجهًا لوجه مع غريم بغيض ماكر كاد يدمره تدميرًا .. تلك العادات والتقاليد اللعينة التى أحرقته ، ودمرت حياته ، وأحيته فى جحيم موصول دون أدنى شفقة أو رحمة ..

وانكب الفتى على غريمه يقتله بحثًا ودراسة مدفوعًا بغيظ حقيقى مما فعله به ..

وحان موعد الندوة ..

واستهلها الأستاذ (سمير) مخاطبًا ضيوفه :

ـ الأستاذ (صالح عثمـان) سيحدثكم فـى دراسته التـى أرسلتها إلى حضراتكم .

وتكلـم (صـالح) فـإذا بـه لا يقل عنهم وقـارًا وفصاحـة وثقة :

ـ أساتذتى : قد لا أكون فى قاماتكم .. وقد لا أعـدو أكثر من تلميذ فى محرابكم هذا .. ولكننى ابن هذه البقعة الغاليـة التـى هـى موضوع حديثنـا .. ومـن يكـون أدرى بآلامهـا ومعاناتها ومواجعها من ابنهـا ؟ نعم يا أسـاتذتى : ليس أنـا سوى ابن بيئتكم مواجـع أمـه ، فهـلا أفسـحتم لـى ولهـا صدوركم ؟

ورحب به الأساتذة سعداء بفصاحته ..

وفتحت الأديبة والصحفية المعروفة (بهيجة حافظ) باب المناقشة :

ـ الحقيقة يا أستاذ (صـالح) لا يستطيع أحد أن يطـالع بحثك هذا دون أن يلمس هذا الحب الهائل الذى تكنـه لبلدك وأهلك ، ولكن ألا تـرى معـى أن الصـورة التـى رسـمتها للصعيد فى بحثك قاتمة إلى حدٍ ما ؟

ـ (قاتمة) تعبير رقيق منـك يـا سيدتى .. فـالحق أنهـا مؤلمة ، مؤسفة ، مأساوية ..

وتدخل الدكتور (على قنديل) الإعلامى الكبير :

ـ يا أستاذ (صالح) الصعيد لم يعد مجهولاً لنا .. الكثير منا زاروه ، ووسـائل الإعـلام احتضـنته ، فلا يمر يـوم دون أن يطل علينـا مـن عمـل درامى أو برنـامج إعلامى أو مقال صحفى ، أو أية وسيلة إعلامية .

ـ هذا صحيح يا دكتور .. ولكن الصعيد الـذى عنيتـه فـى دراستى ليس هـو الصعيد الذى زرتموه ، أو يطل عليكم من وسائل الإعلام .. الصعيد الذى عنيته هو تلك النجـوع والكفور والقرى المعزولة فى غياهب بعيدة لا يدرى بها أحد .. تلك البقاع التى لم يطأها أحد من حضراتكم .. التى لم تعرف فـى تاريخها صالون تنويرى مثل صالونكمِ هذا ، والتى لم يطأها فنان أو فنانة من فنانينا الكبار ، ولم تعرض فيها مسرحية أو حتى لوحة تشكيلية واحدة على امتداد تاريخها ..

الصعيد الذى عنيته يا سادة هـو (الصعيد المنسـى) بكـل ما يعكسه التعبير من قسوة .

وسـكت (ابن الصـعيد) فإذا بالجميع صامتون مشدوهون مصدومون بقسـوة التشخيص .. ولم يقطـع صمتهم المطبق سوى الأستاذ (سمير) بلهجته الهادئة الحنون :

ـ قد يكون هناك بعض التقصير منا تجاه هذه البقاع يا أستاذ (صالح) ولكنها ليست منسية ، وليست مقطوعة الصلة بنا .. فكم أخرجت لنا من أساتذة عظماء فى شتى المجالات .

وأجابه (صالح) على الفور :

ـ وهذه عليكم وليست لكم يا سيدى .. لماذا تنتظرون دائمًا قدوم هذه النوابغ إليكم ؟ ألا تعلمون أنه فى مقابل كل نابغة يأتيكم من تلك البقاع توجد عشرات من النوابغ والمواهب تمنعها ظروفها القاسية من القدوم إليكم ؟ فإذا ما سلمنا بأن ظروف حضراتكم أفضل كثيرًا من ظروفهم فلماذا لا تذهبون أنتم إليهم ؟ ألن يكون هذا مكسبًا عظيمًا لكم ولبلدنا ، وربما للبشرية كلها ؟

وتدخل الأستاذ (جميل خفاجة) المخرج والمنتج المسرحى الشهير شبه محتجًا على تحامل (صالح) :

ـ كأنك تحملنا مسئولية هذا الموروث التاريخى بأسره يا أستاذ (صالح) !

وإذا برد (صالح) شجاعًا قاطعًا كطلق نارى :

نعم يا سيدى ، أحملكم مسئوليته .. كم مرة فكرت حضرتك

فى أن تذهب إلى نجع من تلك النجوع ، لتعرض فيه شيئًا من فنك ؟ عمرك الفنى يزيد على الأربعين عامًا ولم تفعلها .. أعلم أنك وبعض زملائك قدمتم بعض عروضكم فى عدد من عواصم الصعيد ، ولكن أين البقاع المنفية التى نتكلم عنها من هذه العواصم ؟

قد ترد علىّ بأنه لا توجد هناك إمكانات لعرض فنونكم ، وأنا أقولها لكم : « شادر » بسيط كان سيفى بالغرض ، ولن يقلل هذا من قدركم ، بل سيزيدنكم حبًا وتقديرًا فوق ما لديكم .

وراح الفتى الفصيح يدور بعينيه على الجميع فى مرارة وعتاب :

ـ يا سادة : هؤلاء القوم يفنون أنفسهم فى رغيف الخبز الذى تأكلونه ، وفى قطعة اللحم التى تعمّرون بها موائدكم ، وفى ملعقة السكر الذائبة فى عصائركم وحلوياتكم .. أعطوهم يا سادة كما يعطونكم ، وإلا كان الأمر جحودًا ونكرانًا ..

★ ★ ★

الفصل السادس

بدا (صالح) وكأنه غائبًا تمامًا عن الوجود وهو يجلس فى سكون مطبق أمام الكمبيوتر يرنو إليـه بعينين حزينتين حتى إنه لم يشعر بـ (دودى) وهى تقف خلفه تتأمل صورة (صابحة) على شاشة الجهاز ، وتقرأ الأبيات التى بجوارها :

« صابحة ..

يا صاحبة الوجه والعيون   يا دامعة المآقى

عمرى علىّ يهون يا حبيبة   ودمعك علىّ لا يهون »

وغمغمت (دودى) مشدوهة :

ـ ما هذا يا (صالح) ؟!

وأجابها الفتى العاشق دون أن يرفع عينيه عن الأبيات :

ـ رسالة الحب ، أدعو الله أن يلقيها فى قلب (صابحة) .

ـ أتحبها إلى هذا الحد ؟

نهض الفتى ، ووقف أمامها يحلق بعينيه الحزينتين على وجهها للحظة ، ثم سألها :

هل هناك فى هذه الحياة ما هو أكبر من الحب ؟

ـ لا يا (صالح) لا يوجد .

ـ بل يوجد يا سيدتى .

ـ وما هو ؟

ـ الذى أحمله فى قلبى لـ (صابحة) .

وصدقته (دودى) .. صدقتـه من هدير الحب والحزن واللوعة الراكضة فى عينيه بلاهوادة .. وأشفقت عليه منها ، فسألته :

ـ ما رأيك نسرق نزهة سريعة معًا ؟

ـ وهل وقت الأستاذ يسمح ؟

ابتسمت (دودى) ، وأمسكت بالتليفون تطلب الأستاذ فى الجريدة ، وراحت تحدثه وقد فتحت السماعة الخارجية ليسمع (صالح) :

ـ زوجى باشا : (صالح بك أبو عثمان) يريد أن يقترضنى منك لساعة .

وجاء رد الزوج :

ـ (صالح بك) : أرجو ألا تفر بالقرض مثل أصحابنا إياهم ..

ووضعت الفتاة الشقية السماعة بينما الفتى يغمغم مذهولاً :

ـ لو كان لى أهل ما فعلتى بى ذلك .

وانطلقت به (دودى) فى سيارتها (الفيتارة) ، وأخذ الفتى ببراعتها فى القيادة وبجسارة قلبها ، ولم يستطع أن يكبح جماح انبهاره بها :

ـ أنا لو من الأستاذ ؛ كنت أدفع فى حضرتك كل يوم مهر جديد .

وضحكت (دودى) :

ـ ما هذا يا (صالح) ؟ أتغازلنى ؟

وأجابها الفتى باسمًا :

ـ حاشا لله يا هانم ، العين لا تعلو على الحاجب .

ـ لا تقل هذا يا (صالح) ، أنت أخ لنا .

ووجد (صالح) نفسه فى محل ملابس شهير بوسط المدينة ، و(دودى) تقول له :

ـ أعتقد أنه آن الأوان يا صديقى ..

ابتسم الفتى فى ذكاء :

ـ تريدون أن أخلع ثيابى هذه ، وأرتدى ثياب أفرنجية .

ـ هو ذا يا فتى .

تأملها الفتى باسمًا للحظة ، ثم سألها :

ـ أتسمحين لى بأن أصارحك بشىء يا سيدتى ؟

ـ أسمح لك يا صديقى .

ـ كل ما تبذلانه معى وأطيعكما فيه له غرض واحد عندى : أن أحيى روابطى بأهلى وأرضى ومنبتى ، وحبيبتى البعيدة ، وما جلبابى هذا وعمامتى سوى واحد من هذه الروابط .

أسقط فى يد الفتاة ، ولم تملك إلا الإعتذار فى خجل :

ـ آسفة يا (صالح) ، اغفرها لى .

ـ لا عليكِ يا سيدتى ، أدرك نبل مشاعركما .

واستدار الاثنان عائدين إلى المنزل حيث وجدا الأستاذ فى انتظارهما بعدد من الصحف والمجلات ، قدمها لـ (صالح) ليُفاجأ بصورته واسمه وبحثه ومحاوراته فى الندوة منشورة بها جميعًا .. وجلس وهو يعيد التحديق فيها مرات ومرات مذهولاً :

ـ ما هذا الذى يحدث ؟!

وأجابه الأستاذ فى هدوء وهو يجلس خلف مكتبه :

ـ ثمرة اجتهادك .. جميع الأساتذة الذين ناقشوك انبهروا بك ، وهذا هو ردهم العملى .

ـ رغم ما فعلته بهم ؟! كنت أحسبهم سيقاطعونكما بسببى .

ـ إنهم مفكرون يا (صالح) .

وبدا الأمر فى جملته خياليًا للفتى ، فعاد ينظر إلى الزوجين قائلاً :

ـ أشعر كأنكم ثبتمونى فوق رأس صاروخ وأطلقتموه .

ابتسم الأستاذ :

ـ شعور جميل يمكنك أن تحتفظ به للغد .

ـ لماذا الغد ؟

ـ لأنه سيتم إطلاقك بالفعل غدًا .

ـ كاد الفتى يصرخ من غموض الأستاذ ، ولكن الأخير أسرع بمقاطعته :

ـ الغد يا (صالح) .

ونهض الأستاذ ، وخرج من خلف مكتبه قاصدًا زوجته الفاتنة حيث أخذها بين يديه ، وراح يتأملها فى رومانسية عذبة أذابتها ، ثم قال مخاطبًا إياها و (صالح) :

ـ الآن نتعشى ونشاهد معًا (تايتانيك) .

★ ★ ★

ومرت الساعات على (صالح) وكأنها سلاحف كسيحة ، حتى جاء الغد ، ودعاه الأستاذ إلى تناول القهوة فى مكتبه ، وجلس خلف المكتب داعيًا (صالح) إلى الجلوس ، ثم قدم له مظروفًا كبيرًا أنيقًا تناوله الفتى متسائلاً :

ـ ما هذا يا سيدى ؟

ـ مسابقة سنوية تجريها (الأمم المتحدة) .

ردد الفتى مندهشًا :

ـ الأمم المتحدة ؟!

ـ نعم .

ـ وما شأننا ببيت العز هذا ؟

ارتشف الأستاذ قهوته ، ثم بدأ موضوعه :

ـ هذه المسابقة يا (صالح) تجريها (الأمم المتحدة) سنويًا على مستوى العالم ، وهى مسابقة مفتوحة للجميع سواء جهات رسمية أو منظمات أهلية أو أفراد ..

والاشتراك فيها يتم مباشرة دون الحاجة إلى ترشيح من أية جهة رسمية أو منظمة ..

ومضى الأستاذ فى حديثه و(صالح) يتطلع إليه متعجبًا :

ـ ومنذ أيام تم الإعلان عن مسابقة هذا العام ، وحسب التفاصيل الموجودة بهذا المظروف تنحصر المسابقة فى ثلاثة موضوعات : « البيئة .. مكافحة الإدمان .. عادات وتقاليد الشعوب » .

هنا بدأ الأمر ينجلى بعض الشىء لـ (صالح) ، هتف مذهولاً :

ـ سيدى : هل خطر لك أن ...

وإذا بالأستاذ يقاطعه فى حسم :

ـ نعم يا (صالح) ، ستشترك فيها .

عصف الذهول بالفتى :

ـ أنا ؟! كيف ؟! هل هذه الوريقات التى كتبتها تصلح لأن أبارز بها باحثى العالم ؟!

ـ لا بالطبع ، لا تصلح .

وهم الفتى بأن يتمادى فى احتجاجه الذاهل ، ولكن الأستاذ قاطعه بإشارة هادئة :

ـ انتبه لى يا (صالح) من فضلك .. هذه المسابقة تشترط أن تطرح موضوع بحثك فى ورقة واحدة لا أكثر .. وهذا معناه أنك إذا كنت ستبحث فى موضوع (العادات والتقاليد) فإنه عليك أن تحصر بحثك فى جزئية واحدة معينة ـ كالثأر مثلاً ـ ثم عليك أن تتناول هذه الجزئية من جميع جوانبها من نقاط محددة شديدة التركيز .. باختصار يا (صالح) عليك أن تفعل مثل الفرنسيين : «تضع ديك رومى فى كبسولة ككبسولات الدواء» .

وسكت الأستاذ ، فران الصمت المطبق على الرجلين ، وراح (صالح) يتطلع إلى الأستاذ وقد غلب عليه إحساس بأن قراره هذا ما هو إلا نوع من الشطط ، ولكنه قرره .. وبات واضحًا أنها خطوة رتب لها الرجل منذ بدء المشوار ، فكيف يخذله الآن وقد قطعا ما قطعا منه ؟ وإذن فليس أمامه إلا الإذعان ، بل والاجتهاد بإخلاص .. على الأقل وفاءً له ولنبله معه ..

ووجد (صالح) نفسه يبتسم لأستاذه فى حنو متسائلاً :

ـ حدثتنى عن كل التفاصيل يا أستاذى إلا الجائزة .

وأجابه الأستاذ وهو ينظر فى عينيه مباشرة :

ـ جائزة مالية ، وشهادة تقدير ، ودعوة الفائز لإلقاء كلمة عن بحثه فى مقر (الأمم المتحدة) .

انتفض ابن (السمطة) واقفًا :

ـ ماذا ؟! أنا .. أخطب فى (الأمم المتحدة) ؟!

وإذا بالأستاذ يجيبه فى اطمئنان وثقة عجيبة :

ـ نعم يا فتى ستفعلها .

ونهض الأستاذ خارجًا من خلف مكتبه ، ووقف أمامه ينزع كل الستائر عما خطط له ، وعزم عليه من أول المشوار ..

راح يخاطبه وهو ينظر فى عينيه مباشرة وكأنه يخاطب إنسانًا آخر داخل الفتى المذهول :

ـ نعم يا فتى ستفعلها .. لقد قطعت كل هذا المشوار الشاق لأجلها ، وستفعلها .. ستقف على « منصة العالم » وتدعوه لأن يمد يده معك لأهلك وعشائرك .. لأن يغيثهم من جهلٍ ظالم ، ومن ظلمة قاسية لا يستحقونها .. لأن يعيد إليهم حقهم المفقود فى حياة متحضرة مضيئة ..

وسيتحقق لك ذلك المستحيل الذى وعدتك به .. ها هى المحطة الأخيرة فى مشوارنا يا فتى ، وليس أمامك إلا الانطلاق إليها ..

وسكت الأستاذ ولكن عينيه ظلتا تتفرسان (صالح) ببريق عجيب ، بينما الأخير جامد فى مكانه غير قادر على التفوه بشئ ، لقد خُيل إليه أن هذا الواقف أمامه ليس ببشر .. بل قوة خرافية مجسمة ، منطلقة نحو هدفها بلا (كوابح) ، عازمة على اكتساح أية عقبات تعترضها .

وفى النهاية سمع الفتى نفسه يردد كالمسحور :

ـ سأفعلها يا سيدى .. سأفعلها ..

★ ★ ★

الفصل السابع

أسبوع بأكمله و (صالح) يجوس بفكره فى كل الاتجاهات بحثًا عن تصور واضح لموضوع البحث .. لقد وجد نفسه يقبض بفكره على (الثأر) كأبشع غريم له .. ولكن كيف يطرحه فى البحث ؟ وكيف يتناوله بهذا التكثيف الشديد ؟ وما هى الصورة التى يتم تناول مثل هذه الأبحاث بها ؟ وعند هذا السؤال توقف تفكيره .. وكان طبيعيًا أن يهرع إلى الأستاذ مستعينًا بعلمه وثقافته ، ولكن رد الأستاذ جاء نظريًا أكثر منه عمليًا من وجهة نظر (صالح) :

- « عليك بالموضوعية الشديدة والحقائق الخالصة » .

وعاد الفتى بخفى حنين .. ثم إذا به يجلس أمام الكمبيوتر ويأتى على شاشته بصورة (صابحة) .. وإذا بالحبيبة تملأ الشاشة بوجهها الصبوح الفاتن ، وعينيها الجرينتين الساطعتين ، وابتسامتها المشرقة الحلوة .. وراح الفتى يتأملها طويلاً فى حنين جارف ، يوشك أن يطلق دموعه ، وقد تراءت له

أيامهما الخوالى معًا حين كانت تمرح أمامه فى الحقول ضاحكة متهللة كفراشة محمومة بسعادتها ، أيام أن كانت تجلس أمامه تمنحه عينيها فتنساب فوق لسانه أحلى كلمات الغزل .

ووجد الفتى العاشق نفسه يبحر فى عينى المحبوبة الضاحكتين على الشاشة وهو يهمس لها فى رجاء :

- إلهمينى يا حبيبة القلب ، لأجل عود جميل إليك إلهمينى .

وراح الفتى يحلق بعينيه على وجهها وقد دبت فيه لهفة عاتية تريد أن تستنطقها ، وفجأة انتفض هاتفًا :

- شكرًا يا أجمل (صابحة) فى الكون !

وأسرع الفتى يستدعى (دودى) ، وجلسا معًا ينفذان فكرته بإنشاء موقع على « الإنترنت » .. ثم إذا بالفتى الداهية يطلق رسالته إلى كل باحثى العالم الذين سبق لهم الاشتراك فى ذات المسابقة .. ولم يطل به الانتظار ، انهالت على موقعه أكثر من مائتى بحث ، انكب على دراستها جميعًا دون كلل .. وإذا به يكتشف قيمة نصيحة الأستاذ : « الموضوعية الشديدة والحقائق الخالصة » ..

وجلس الفتى أمام أوراقه ، يطرح عليها كل ما يتعلق بـ « الثأر » : مسرحه العتيق الضخم ، تاريخه الطويل ، جذوره ،

مردوده الدينى ، عوامل احتفاظ هذه العادة الشيطانية بقوتها واستمراريتها إلى وقتنا هذا رغم كل هذا التقدّم فى الحياة ، إحصائية دقيقة بعدد ضحاياها ، أحضرها الأستاذ من وزارة الداخلية .. وأخيرًا السلاح الحاسم ، لصرع هذه العادة البغيضة : « سلاح العلم والتنوير » .

ومضى الفتى مع أفكاره : يفرز ، وينتقى ، ويضغط أكثر من نقطة فى نقطة واحدة ؛ لينجح فى النهاية ، فى استخلاص ورقة واحدة تغطى موضوعه من كافة جوانبه ، ولتبدأ حولها مرحلة طويلة من المناقشات بينه وبين الأستاذ تغيرت خلالها الورقة أكثر من عشرين مرة ، حتى نطقها الأستاذ :

ـ فلنتوكل على الله .

★ ★ ★

وطارت الورقة إلى لجنة المسابقة بالأمم المتحدة .. وكان باقيًا على إعلان النتيجة ثلاثة أشهر ..

كان (صالح) قد بلغ قمة نضجه الفكرى ، فأسرع ينجو بنفسه من وطأة الفراغ والانتظار بأسلوب عملى رائع .. انطلق يشارك فى المنتديات الثقافية والأدبية المنتشرة فى

العاصمة ، وراح يطالع أحدث الإصدارات على مستوى العالم .. وداهمته للحظة فكرة قاسية وهى أن يطير إلى (السمطة) خلسة ، ويدخلها متخفيًا ليرى حبيبته التى أوحشته من بعيد ولو بنظرة واحدة .. ولكنه سمع صوت رحمة سماوية يهمس له بداخله فى حنو : « ستعود إليها إن شاء الله بطريقة أكرم » .. ولم يملك الفتى العاشق إلا أن يرفع عينيه إلى السماء مطمئنًا إلى رحمة الله .

ثم إذا بالأستاذ يفرد له صفحة كاملة فى مجلته يكتب فيها ما يشاء من موضوعات اجتماعية وثقافية ..

ثم إذا بالمتعة التى استحوذت عليه تمامًا : (الإنترنت) .. لقد فوجئ بكل الباحثين الذين لبّوا نداءه وكثيرين غيرهم يداومون على زيارته فى موقعه ، ويدخلون معه فى محاورات رائعة ممتدة ارتفعت بثقافته إلى قمة مذهلة .. وصاروا بالنسبة له أسرته العالمية ..

★ ★ ★

ومضت الشهور الثلاثة على الفتى دون أن يشعر بها ..

وإذا باسمه يدوّى فى كافة وسائل الإعلام المصرية والعالمية إحتفاءً بفوز بحثه بالمركز الأول على مستوى العالم ..

وراحت فصول الحلم الذى لا يُصدق تتوالى : تقاطرت عليه كافة وسائل الإعلام .. وانهالت عليه التهانى من كافة الجهات ، وتهانى من أقطاب الفكر وصفوة المجتمع ، وتهانى من وزراء ومسئولين كبار ، وتهنئة مذهلة من رئاسة الجمهورية ..

أما التهنئة التى أذابت الفتى ذوبانًا كاملاً فكانت من الأستاذ وزوجته .. اعتصره الأستاذ فى حضنه فى صمت مطبق نطق بأسمى المشاعر الإنسانية .. أطبق عليه فى صدره ، وكأنه يحضن وجوده وروحه ، وكيانه كله .. بينما وقفت (دودى) الجميلة الرقيقة تمسح دموعها التى إنسابت من عينيها رغمًا عنها ..

وحينما التفت إليها (صالح) وهو يقف بين يدى الأستاذ تقدمت هى منه ، ووضعت قبلة حميمة على خده فلم يملك الفتى إلا أن يرفع يدها ، ويطبع عليها قبلة الامتنان والعرفان بالجميل ..

وحلقت الطائرة بالأصدقاء الثلاثة منطلقة إلى (نيويروك) ، و(صالح) يزداد ذهولاً وذوبانًا .. وبدا له الأمر كله شيئًا يفوق الحلم ، شيئًا يأخذ بعقله وأعصابه ووجدانه .. شيئًا فوق حدود الاحتمال ..

وشعر به الأستاذ فأسرع بوضع (المصحف الشريف) بين يديه ليعيش لحظات مع ذكر (الله) ..

وهبطت الطائرة أرض مطار (نيويروك) ..

وعندما بلغ (صالح) بابها وقف أعلى السلم يدير عينيه فى أرجاء المطار ، وفى العلم الأمريكى ، وفى الوجوه الأمريكية ، وفى الفضاء الأمريكى وهو يهمس لنفسه غير مصدق :

ـ هذه هى (أمريكا) إذن !

وإذا بنفحة غريبة تفوح فيه ، فإذا به ينتصب شامخًا رافعًا رأسه وقامته فى عظمة وكبرياء وزهو مذهل ويقول بصوت حاسم مسموع :

ـ وأنا حفيد الفراعنة .

ومن هذه اللحظة مضى الفتى يقابل من يقابل من مسئولين ، وأعلاميين ، وصفوة فى شموخ وثقة ورحابة صدر سحرت أفئدة كل من تعاملوا معه حتى وجد نفسه يقف إلى منصة « منظمة الأسكوا » بالأمم المتحدة يخاطب النخبة التى أمامه ، ويخاطب العالم بأسره عبر عشرات الميكروفونات والكاميرات .. وقف بكل شموخ وثقة يلقى كلمته بالإنجليزية :

« السيدات والسادة :

أشكركم على كل ما لاقيته منك من حفاوة النبلاء ، وأطمع فى سعة صدوركم لكلمتى ..

إننى لم آت إلى محفلكم هذا بإرادتى أو إرادتكم .. إنما هى إرادة الله ، التى شاءت أن تجعلنى صوتًا لأعظم وأعرق بقعة على وجه الأرض .. أرض أجدادى الفراعنة .. شموس التاريخ التى لا تخبو ولا تنطفئ .. نماذج العظمة التى تستلهمون منها روح الحياة وعبقريتها ..

هؤلاء الأجداد الذين منحوكم بهاء التاريخ ، وعبقرية الحياة ، وآمال الخلود يناشدونكم أن تمدوا أيديكم إلى أحفادهم فى (صعيد مصر) .. هؤلاء الأحفاد الطيبون خلفتهم بعض ظروف التاريخ عنكم فى بعض نواحى الحياة على النحو الذى بينته فى دراستى .. فهل يسمح لكم وفاؤكم أن تتركوهم فى موقعهم وتمضوا فى سبلكم ؟ ما نظن فيكم هذا .. وما نرى فيكم إلا النبل والوفاء .. » .

★ ★ ★

ومن مقر (الأمم المتحدة) إلى التليفزيون الأمريكى حيث وقف فريق العمل فى الـ (CNN) يستقبلون الفرعون الأسمر الصغير .. وأقبل عليهم الفتى باسمًا ، واثقًا مختالاً

بنفسه ، وراح يصافحهم جميعًا ، وهو يوزع عليهم ابتسامته الساحرة ويداعبهم بكلمات إنجليزية راقية ليتبين لهم على الفور أنهم أمام فرعون صغير حقيقى بكل ما للفراعنة من سحر وهالة وإشراق ..

وبدأ البرنامج المستضيف للفرعون الصغير على الهواء مباشرة ، وانطلقت المذيعة الشابة الفاتنة الباسمة تحاوره بأسئلتها الذكية ، بينما عيناها الخضروان الجريئتان تكاد تلتهمانه إعجابًا وافتتانًا ..

وراح الفتى يروى بالإنجليزية ، فى طلاقة مذهلة تفاصيل رحلته من (السمطة) إلى منصة الأمم المتحدة .. وإذا به يطلب استضافة البطلين الحقيقيين لهذه الرحلة الأسطورية الصحفى المصرى (سمير عبد الرحمن) وزوجته (دودى) ، ووقف الفتى يستقبلهما بكل الإجلال والإكبار ، وهو يعلن على العالم أن هذين الملاكين هما (صانعاه) بكل ما تعنيه الكلمة من معان ..

ثم إذا بالفرعون الشاب يطلق رسالته إلى العالم :

ـ « هناك على أرض صعيد مصتر ملايين من (صالح عتمان) .. ملايين من الفراعنة الحقيقيين لديهم الاستعداد

لقطع نفس المشوار ، لأن يكونوا سفراء حب وسلام للبشرية بأسرها » ..

ومن وسائل الإعلام إلى العديد من المنظمات والجمعيات الأهلية الأمريكية والعالمية ، التى أقبلت على (صالح) ملبية النداء ، ومبدية استعدادها التام لتنفيذ أية خطط أو برامج يضعها لنهضة صعيد مصر .. وكانت المفاجأة التى أعلنها لهم أنه تقدم بالفعل (للأسكوا) بمشروع إنشاء « مركز تنوير عالمى فى قريته السمطة » ..

وإذا بكافة المنظمات والجمعيات تبدى استعدادها التام لتنفيذ المشروع ..

وأخيرًا انفرد (صالح) بمعلميه العظيمين الأستاذ و (دودى) .. وقف أمامهما فى جناحه المطل على المحيط الأطلنطى يسألهما عن الخطوة الأخيرة فى المشوار .. وجاءه رد الأستاذ نبيلاً حانيًا ..

ـ قريتك الحبيبة وأهلك جميعًا .. و(صابحة) فى انتظارك يا أجمل صعيدى ..

وارتج الفتى .. ارتج كل كيانه ، وسكنت نظراته على وجه معلمه مشدوهة مذهولة ، بينما هدر القلب بمشاعر

صاخبة ، ولم يجد بداخله الكلمات القادرة على الإفصاح ، ولكن دموعه أفصحت .. راحت تنساب من عينيه بعد طول احتباس .. وأخيرًا ارتمى فى حضن معلمه ليذهبا معًا فى عناق جليل محموم ، بينما وقفت (دودى) تمسح دموعها مأخوذة بجلال الموقف ..

★ ★ ★

الفصل الثامن

لم تشرق على (السمطة) أيام كهذه منذ نشأتها قبل مئات السنين .. وجدت نفسها تقفز من مجاهل الأرض إلى عنان السماء ، وتسبح فى حلم لا يصدقه عقل .. كاد الذهول يعصف بعقول أهلها جميعًا وهم يشاهدون ابنهم (صالح أبو عتمان) يملأ شاشة التليفزيون .. ذلك (البجم) ذو الرأس الحجرى الذى لم يكن يعرف من دنياه سوى النطح والركل ، والذى كان يدهس كل ما يعترضه غشمًا وجهلاً وتخلفًا .. ها هو الآن يسطع فى سماء العالم نجمًا زاهرًا .. ها هو يحلق فى سماء العالم بعبقريته وفصاحته .. ها هو يهدى قريتهم ميلادًا جديدًا رائعًا ما كان ليخطر بعقل بشر .. ها هو يحمل قريتهم المجهولة النكرة فوق جناحيه ويحلق بها فى سماء العالم !! من يصدق ؟! من ؟!

حتى (صابحة) ذاتها لم تصدق .. راحت تردد لنفسها مذهولة :

ـ مستحيل .. مستحيل أن يكون هو ! مؤكد هناك لبس فى الأمر .

ولكنها حينما أعادت التدقيق فى وجهه على شاشة التليفزيون وهو يروى حكايته تأكد لها أنه هو ..

لحظتها ضربها الذهول ، وإذا بالقرية كلها تهرع إليها مذهولة هى الأخرى ، وقد اجتمعوا جميعًا على سؤال واحد :

ـ معقول ؟! (صالح أبو عتمان) ؟!

وحينما تأكد لهم جميعًا أنه هو ، تبدل طوفان ذهولهم بطوفان أشد من الفرحة ..

يا الله على فرحة هؤلاء الناس البسطاء حين يفرحون من قلوبهم !! صاروا وكأنهم أسراب من قلوب مجنَّحة تضرب بأجنحتها فى أعلى سموات الحب والسعادة بلا تحفظ .. اندفعوا يحطمون كل قيود العادات والتقاليد التى كانت تكبلهم حتى فى التعبير عن مشاعرهم .. انطلقوا يفعلون كل ما يحلو لهم .. امتلأت القرية بالغناء والزغاريد من مكبرات الصوت التى انتشرت فوق الديار ، وانطلق الرجال والشباب والأطفال يرقصون على أنغام الزمر البلدى .. وتزينت كل الفتيات ، وارتدين أجمل ما لديهن .. وسطعت وجوههن وعيونهن بالفرحة .. حتى عواجيز النساء عادت صبايا من شدة فرحتها ، وبدت القرية بأكملها كعروس ، أقبلت عليها كل قرى ونجوع المحافظة تهنئها وتشاركها فرحة السعد الذى هبط عليها ..

أمَا (صابحة) فقد فوجئت بنفسها وقد صارت عروس القرية .. الكل يتوافد عليها .. الكل يهنئها .. الكل يحلق من حولها فى فرحة وحسد ، بينما هى تتعجب بشدة لسذاجتهم وطيبتهم المفرطة :

ـ ما أكثركم سذاجة ! هل تعتقدون أن (صالح أبو عتمان) الآن ما زال هو (صالح أبو عتمان) القديم ؟! هل تحلمون بأن يتذكركم (صالح) الآن ؟! (صالح) الآن صار فوق فوق ، وما نحن سوى قطرة فى بحر البشر الذين يتطلعون إليه .. وحتى إذا جاء ـ كما تحلمون ـ فسوف يكون مجيئه مجرد زيارة واجب ، وذلك إن لم تكن نيته هى استرداد اعتباره من القرية التى مسحت بكرامته الأرض .. وأيًا كان دافعه للمجئ فسوف يعود بمجرد أن ينال غرضه إلى عرشه الذى رفعه فوقه الزمان ..

هكذا كانت (صابحة) تردد على مسامع مهنئيها ، وكانوا للحق يغتاظون من رأيها هذا ، ويراهنونها على أن (صالح) هو ابنهم .. ابن قريتهم .. ابن هذه الأرض الطيبة .. وهو سيعود لأمه .. سيعود ابنًا بارًا مخلصًا ..

وكان تعجبها الذى تبديه يتزايد أمام دفاعهم عنه .. بينما قلبها فى داخلها يهمس حالمًا متمنيًا : « مقعول يا (صالح) » ؟ معقول ما زلت تتذكرنا ؟ ما زال لنا مكان فى قلبك ؟ أم قلبك

نسينا بسعد الأيام لك ؟ أما تراه ما زال مصبوغًا بسواد الماضى ودم (نوارة) ؟ إذا كان هذا ، فقد سامحتك يا ابن العم .. صحيح أننى عشت وقتًا طويلاً ساخطة عليك ، كارهة لك .. ولكن فى النهاية أيام الحزن مضت وأخذت معها غشاوة الفجيعة .. ورأيتنى أدرك حرقتك على أخيك (الفضل) .. ورأيتنى أتذكر نفسى وأنا أدفن (نوارة) .. لحظتها تمنيت لو أن يدى طالتك حتى أزهق روحك بهما .. ووجدتنى أقول لنفسى « إذا كنت أنا الفتاة ، دفعتنى حرقتى على أختى الطفلة إلى التفكير فى الانتقام منك بهذه الحرقة ، فكيف بحرقتك أنت الرجل على أخيك الشاب الذى قُتل أمام عينيك ؟ » وهكذا وجدتنى أدرك بهدى ربى أنك لم تكن تقصد مطلقًا ما فعلته بـ (نوارة) ، وأن ما أصابها كان قدر محتوم لا مفر منه ، وانك كنت أكثر الناس حزنًا عليها .. ووجدتنى أسامحك وأدعو الله أن يخفف عنك محنة السجن ، بل وجدتنى أفكر فى زيارتك لأبوح لك بكل هذا ، ولكنى خشيت عليك من الذكرى ، فرحت أنام وأصحوا على أمل أن تخرج وتعود لى لأعوضك عن كل هذا ..

تلك كانت مشاعرى نحوك يا حبيب القلب ، إلى أن فوجئت بالزمان يحملك فوق جناحيه ، ويحلق بك بعيدًا بعيدًا ..

وها هو قلبى يتأرجح بين اليأس والرجاء ، ها هو يسألنى : هل مازلت تتذكرنى ؟ هل عودتك هذه لأجلى يا أنيس القلب ؟ لأجل (صابحة) حبيبتك ومعبودتك ؟ لأجل عيون حبيبتك التى كنت تتغنى بجمالها ؟ التى كنت تسبح فيها مفتونًا وهيمانًا ؟ التى كنت تستودعها أحلامك وآمالك ؟ هل ستعود لنا يا حبيب ؟

إن عدت فستجدنا أنا وقلبى وعيونى فى انتظارك ، وإذا بقيت هناك فى عليائك فلو أننا فى هنائك .. فقط تعالى كى أملأ عيونى منك ..

تعالى لأرتوى أنا هذه المرة من عيونك ولو بنظرة واحدة .. نظرة واحدة يا حبيب القلب .

★ ★ ★

وأقبل اليوم المشهود !!

خرجت (السمطة) عن بكرة أبيها ، ومعها قرى ونجوع المحافظة بأسرها منذ الصباح الباكر تصطف على جانبى الطريق المرصوف حتى الطريق الرئيسى بين « قنا وأسوان » وعلى طول الطريق شُدت لافتات الترحيب بالفارس العائد ، ونصبت السرادقات والأقواس ، وعلقت مكبرات الصوت تتصايح جميعها بهتافات الترحيب والتهنئة وبالزغاريد ، وانتشرت فرق الطبل

والمزمار البلدى تملأ الفضاء طبلاً وزمرًا ، والجميع يرقصو ، ويغنون ويصفقون على أنغامها فى حلقات تتوسطها خيَّالة يرقصون بخيولهم العربية الفاتنة ، ولم يجد الأطفال والصبية مكانًا يشاركون منه فى هذا الكرنفال الرائع سوى قمم الأشجار ، فاحتلوها بشقاوة كأسراب من الطيور البريئة العابثة ..

ورغم كل هذا التزاحم والصخب ظل نهر الطريق خاليًا إلا من كبار رجال الأمن ، فقد تم تسوير الطريق بحاجز بشرى ممتد بطوله من جنود الأمن المركزى لحجز الجموع منه ..

ومن داخل هذا الحاجز البشرى كان هناك حاجز آخر ، ولكنه كان رهيبًا محزنًا غير مسبوق فى جلاله : صف طويل ممتد بطول الطريق من صور بالحجم الطبيعى لرجال وشباب مجللة بشرائط الحداد السوداء ، وقد انتهى هذا الصف الرهيب عند مدخل السرادق الضخم المعد للفارس العائد وضيوفه بصورة ضخمة مضاعفة الحجم لأصغر ضحايا الثأر : الزهرة البريئة الطاهرة (نوارة) ..

تلك كانت صور بعض ضحايا الثأر فى (السمطة) على امتداد عشرات السنين ، والتى أمكن جمعها تنفيذًا لرغبة (صالح) .. لقد أراد الفتى بعبقريته أن يجسد لأهل قريته الحبيبة ، وللصعايدة أجمعين ، وللعالم كله بشاعة هذه العادة الملعونة ، وماحصدته من أرواح بريئة ، وما سفكته من دماء عزيزة ..

أراد أن يطلق عيارًا قاتلاً فى صدرها .. وإذا برسالته تخترق القلوب ، وتحقق ما أراده الفتى النبيل .. فقد راح قلب كل من يقع بصره على هذا الطابور الرهيب من الضحايا ينقبض حزنًا وحسرة ويهتف ساخطًا على هذه العادة الشيطانية البغيضة ..

★ ★ ★

وصرخ الفتية وهم يجرون على الطريق :

ـ (صالح) بك وصل ! الفارس وصل !

وأقبل الموكب المهيب زاحفًا نحو القرية ..

ظهرت دراجات الشرطة البخارية ، ومن ورائها طابور من سيارات الشرطة تطلق سارينـاتها المدوية المميزة .. ثم سيارة رئاسة الجمهورية يرفرف على مقدمتها علم (مصر) .. ثم سيارة (الأسكوا) يرفرف عليها علم (الأمم المتحدة) .. ثم سيارات المحافظ وكبار المسئولين بالمحافظة ، تليها سيارات الضيوف من صفوة المفكرين والمثقفين ، ثم سيارات وسائل الإعلام .. ثم سرب طويل من سيارات وجهاء الصعيد وأعيانه .. ثم فى النهاية طابور آخر من سيارات الشرطة ودراجاتها البخارية الحديثة ..

وانفجر الهياج ..

دوّى الطبل والزمر ..

ودوّى صياح الترحيب والتهليل من مكبرات الصوت ..

ودوّت هتافات الجموع المتدافعة على جانبى الطريق ، وفوق الأشجار وأعمدة السرادقات والأقواس .. والكل يصرخ على الفارس ، والعيون تفتش عنه فى لهفة مجنونة ، بينما الفرعون الصغير يلوح لهم من مقعده الخلفى بسيارة رئاسة الجمهورية لتزداد فرحة الناس الطيبين جنونًا وهياجًا ..

وبلغ الموكب القرية ..

ونزل (صالح) .. ولولا يقظة رجال الأمن لذاب الفارس تحت أمواج البشر التى اندفعت تريد احتضانه ..

وبشق الأنفس أدخله الضباط إلى السرادق .. وقادوه إلى المنصة التى تتصدره .. ولكنه رفض الجلوس ، ووقف لأكثر من نصف ساعة يروى عينيه وقلبه الظامئ من هذا النبع المتدفق من الحب .. الذى بلغ ذروة سعاره واشتعاله ويوشك أن يحرق قلبه تمامًا .. وراح يصرخ فى داخله

« أين أنت ؟ أين ؟ » وراحت عيناه تخترقان الجموع باحثة عنها فى لهفة عاتية محمومة ..

وظهرت ..

ـ ظهرت بفستانها الأبيض المطرز ،ووجهها الجميل الصبوح ، وعينيها الجريئتين الساطعتين .. أقبلت متمهلة حذرة تطلق على البعد شعاع عينيها نحوه متسائلة : « أأقبل عليه أم أعود ؟ تريدنى أم نسيتنى ؟ » ها أنا ذا يا فتى : بشوقى ، بلهفتى ، بكل حبى الذى كان والذى زاد .. هل تريدنى ؟ هل مازلت تحبنى ؟ هل عدت لأجلى ؟ تكلم يا فتى ..

أجبنى ..

والتقطتها عينا الفتى .. وتلقى الرسالة .. وإذا به يخرج من خلف المنصة ماضيًا إلى خارج السرادق وسط دهشة كبار المسئولين .. وهمَّ كبار رجال الأمن أن يعترضوه خوفًا عليه ، وإذا به ينحّيهم جانبًا ، ويمضى مأخوذًا محمومًا بينما الجميلة مقبلة عليه بنفس الحذر والتوجس ..

وأطبق الصمت على الجميع ..

وفجأة ، وفى لحظة واحدة اندفع العاشقان نحو بعضهما بكل سعير الشوق وجنون الحب وظمأ السنين .. ولولا تقاليدهما

لافترسا بعضهما عناقًا وقبلات .. ولم ينطق لسان أحدهما ، ولكن عيونهما صرخت بكل شىء .. صرخت ، ورقصت ، وتعانقت فى جنون .. وهمت العروس أن تقول شيئًا ، ولكن الفتى المشرق أشار لها بالصمت ، وسحبها من يدها عائدًا إلى المنصة حيث أوقفها بجواره وسط تهليل وزغاريد وتصفيق الجميع ..

وأخيرًا أمسك (صالح عثمان) الميكروفون مرسلاً صوته رخيمًا راقيًا :

ـ آبائى ، وأعمامى ، وأخواتى .. يا أعز الناس : أنا (صالح أبو عثمان) ابنكم .. ابن (السمطة) الرائعة بأصالتها .. ابن هذه الأرض الطيبة .. هل مازال لى مكانًا بينكم ؟

ودوّى الصياح يرج الفضاء :

ـ (صالح) .. (صالح) .. (صالح) ..

ورفع الفتى الأسطورة يد عروسه محييًا الجموع .

تمت بحمد الله

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى



السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب
أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل



فوزى عوض سعداوى

ملاك الحب

اسمع يا أستاذ .. يا أديب :
الفلاح البسيط حين يغرس بذرة فى
تربة ما .. لا يمكن أن يفعل إلا وهو واثق
كل الثقة فى أن هذه التربة ستضمن الحياة
لبذرته التى يغرسها .. فما بالك بالخالق
الأعظم حين يغرس الحب فى
قلوب يصطفيها ؟

99

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



الثمن فى مصر ٢٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم